



ياسين فخر الدين  
ادخلوا مساكنكم  
دار نشر روضة الكتاب العربي - ستوكهولم

ادخلوا مساكنكم هي العبارة السائدة في هذا الوقت، طمئنتها الأفراد تطبيقاً اجتماعياً مع ما أقرته سلطات البلاد من امتيازات. لزوم المواطنين جانب الضرر الإيجابي من الآخرين، والذين لا هم لهم إلا التهنئة من الوضع، وتوزيع الضحايا الالهية عن ذكر الحق. يرى بعض الضحايا أن الدولة كلفوا انتهاكها، بالكبير والصغير تخاطب الصريح، وأنها تقدر بعينها عن الصريح، لا يرون أن الحكومة تدرك نتائج الخطر، ولا يرون أن إيطاليا بالأمرس جاءها الوباء ولم تعن اهتماماً، وكانت النتيجة مئات الآلاف من الصابيين بالوباء، ومئات الموتى، وعشرات الأزمات، أما بلاد الصين فقد ولت عنها الوباء بعدما عذب شعبها وأذاتة العلقم، واليوم عاد الشعب العامل إلى حياته الطبيعية بالجر والحزم لا بالسخرية والتهكم. ما بال بعض الأفراد لا يستوعبون الدروس وهي أمام أعينهم؟ ما بال أقوام يفتخرون بعينهم يوماً؟ ما الهؤلاء الضموم لا يفتخرون حديثاً؟ لا يرون أن إيطاليا كانت تتحتم واستمرت في ولائها لحياتها الطبيعية بينما الضموم عموماً في ديارها؟ ما الهؤلاء الآخرين لا يفهمون أن الصين تخرق عن سواعد الجسد؟

قصير الغلاف: ياسين السباعي

ISBN 978-91-89288-18-8



دار نشر روضة الكتاب العربي -  
Stockholm



ياسين فخر الدين

# أَدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ

رواية

الكتاب: ادخلوا مساكنكم

المؤلف: ياسين فخر الدين

الطبعة الأولى 2021

الغلاف تصميم: ياره السباعي

ISBN: 978-91-89288-18-8

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية 20-18-22-01-2021

الناشر: رقمنا الكتاب العربي - ستوكهولم

السويد، فاستراء جوتالند

هاتف: 0046790185518

البريد الإلكتروني:

[digitizethearabicbook.com](http://digitizethearabicbook.com)

جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى



-1-

استيقظت على صوت المنبه، يا له من منبه، إنه من طبيعة، ألم تنم؟ إنها أمي، تنام الأخيرة، وتستيقظ الأولى، إرادتها حديدية. مَنْ علمها أنّ الصعْب يهون بالهمّة والإرادة والعمل المتواصل؟ وجدتها فوق رأسي تصيح

استيقظ يا هذا، ألم تسمع نداءاتي مُذ نصف ساعة، أنت دائماً هكذا، بقيت ساعة حتى تقصدَ - دروسك الصباحية، لِمَ تسهرُ الليل جله؟ أنتوي أن تتغيبَ اليومَ وتقودني من جديد عند الحارسة العامة؟ أنت لا تخجل، يا لك من مشاكس، أعيينتني، وأعيينت أباك بصنائعك، لا تجيدُ إلا فن المشاكل، أرجو يوماً أن تتعقل، وتصنع المعروفَ معي ومع نفسك. لا بد أنك سهرتَ مع

المحمول، لابد أنك ثملٌ، والسببُ هذه الآلة الذكية، هي أذكى منك، ألا تتدبر؟ يا لك من ابن يحسبُ أن الدنيا تسير بالعبث، يا ليتك تعقلت

لم أتمعنُ خطابَ أمي جيداً، لأنَّ بقية النوم عكرتُ مزاجي في هذا الصباح، ولولا أمي لاستيقظتُ إلى حدودِ الظهر أو ما قاربه. حككتُ عينيّ بظهر يديّ، قصدتُ الحمام، وقبل أن أصله وجدتُ أمي تحضرُ فطورنا كما العادة داخل المطبخ، شايّ وخبز وزيت، وبعض الحلويات التي حضرتها أمي خصيصاً لي، لأنها تعلم أنني أحب الحلوى، خاصة مع الصباح، وخاصة مع كأس الشاي. دخلتُ الحمام، غسلتُ وجهي، وغسلتُ فمي بالفرشاة، وخرجتُ أدراجي. مسحتُ بالمنشفة، وما إن وضعتُ رجلي اليمنى على العتبة حتى سمعتُ صوتَ أمي يخاطبني من جديد:

هل توضأت؟ -

لم أتوضأ؟ هل أصلي؟ تعرفين أنني لا أفعل -

يا ويح هذا الفتى، أتريدني أن أجنّ؟ في كل يوم أكلمك عن الصلاة، ألا تستحيي؟ سوف تبقى - هكذا دون عقل، أنت بلا صلاة دابة ترعى. سمعتُ البارحة في قناة دينية أنّ الله ما خلقنا للأكل والشرب واللباس والسكن، وإنما خلقنا للعبادة، وأول عبادة هي الصلاة

وواصلتُ برفق:

يا بني اركبُ معنا، يا بني أقم الصلاة، واهجر هاتفك، فقد قضى على حياتك، وكثيراً أبكى - ففعلك قلبي، يا بني تعقل قبل فوات الأوان

أنا لا أقدر على مواجهتها، لأنها أمي أولاً، وثانياً ربما زدتُ الطين بلةً، وربما أشعلتُ حشاها، وأيقظتُ لسانها الحاد، وقد أخرج من المنزل مشتعل الأحاسيس، وكثيراً ما جرى -معي- هذا. ما كان مني إلا أن رددتُ عليها مطأطأ الرأس، خافت الصوت

الأسطوانة نفسها على الصباح، ألا يمسك العياء -

سمعت صوتها حنوناً هذه المرة، دافئاً، أحسنت بكلامها نابعا من أعماقها

دعوتُ ربي ليلاً ونهاراً أن يردك إلى رشديك، ولا أراك إلا زدت استكباراً. عليّ ألا أياس، - وأواصل الدعاء لك ولإخوتك الصغار. اذهب وأيقظ إخوتك الصغار كي يحضروا أنفسهم للذهاب إلى المدرسة

:اتجهت نحو مرقد أخ وأخت

ياسر قم، بُثينة قومي، اغسلا وجهيكما، والبسا ملابس المدرسة، هذه السابعة والرابع. قام ياسر - وبُثينة بسرعة، لأنهما أخذما ما يكفي من الراحة. هما - عادة- ينامان بعد العشاء، وربما فضلا أن يناما من دون وجبة، النوم عندهما أحلى من وجبة العشاء، أو ربما اكتفيا بشيء من الطعام من الثلجة، ثم قصدا مضجعيهما، وناما نومة هنيئة، لا يكدرها شيء. وأنا أحتاجُ إلى ساعاتٍ حتى أنام، أصابني الهوس، وغيرَ المحمولِ نومي البيولوجي، أذهبَ عليّ حلاوة النوم، وعيناي المائلتان إلى الزرقة خير شاهد. لا أدري ما يفعل بي، لا أجدني مُرتاحا إلا إذا أمسكتُ المحمولَ تحتَ الغطاء. أفتخُ الفضاء الأزرق، أتصفحُ ما وصلني من رسائل أصحاب افتراضيين في الأغلب، أرددُ عليهم، وأبتهم الشكوى، والتي لا تنقضي، وأقصدُ صديقا آخر ظهر كالقمر، اختفت أخباره منذ شهرين، أتقصى أخباره، وأتبيّن سببَ غيابه عن الفضاء، وأقصدُ آخر في دوامة لا تنتهي.

أعلم أنني أسببُ المشاكل لنفسي، لكن شيئا يمنعني من التراجع، أمضي نحو المجهول، كلام وتواصل تافه لا يسمن ولا يغني من جوع. أدخلُ إلى هذا الرابط، أشاهد أو أقرأ تافها، أضحك حتى تظهرَ نواجذي، أعلقُ على ما شاهدتُ أو قرأتُ، وفي بعض الأحيان أضغط مشاركة يتفاعلُ معها الآخرون. يقالُ إن الفضاء الأزرق مراقب، وهو للتجسس، وأعرفُ هذا، وقد يكونُ الخبر صحيحا، وقد يكون غيرَ ذلك، وما هو واضح أنه يعكسُ صورة صاحبه.

أخذتُ مكاني على المائدة وياسرا وبُثينة، وأمي كالعادة لا تزالُ تنزلُ فوقَ المائدة ما ترى أنه نافعٌ لنا في هذا الصباح، ويزيدُ الطاقة، ويُقوي الأجسام. أكلتُ بسرعة كأنني أرمي الطعامَ في الجوف، كأنني سوف أغادرُ المنزلَ إلى أمر هامّ. أمي مازالتُ تحذرني

.إياك أن تأكلَ بسرعة مثلما تفعلُ دوما، إياك إياك -

لا أكثرثُ لكلامها، وأفعلُ كما العادة، وهذا أمر يزيدُها عصبية، ويزيدُها حنقا، وإيماءة بوجهي تكفي كي تزداد غضبا. لا تجدُ مع ياسر أي مشاكل، أما بُثينة فهي مُدلة المنزل، وهي لا ترعجُ، تسمعُ ما يُقالُ، وتطبق. وكل من ياسر وبُثينة يسمعُ الكلام، ويُرضي الوالدة، وفوق هذا هما متميزان في دراستهما، ولا تترددُ أمي للسؤال عنهما كثيرا، تسألُ عن أحوالهما داخلَ الفصل مرة مرة. تترددُ أمي للسؤال عن أحوالي داخلَ ثانوية ابن هشام الإعدادية دوما، وفي كثير من المرات ترسلُ الحارسة العامة في طلبها، لأنها أدركتُ أن الأم حازمة معي، وكَمْ وبّختني أمامها، وكَمْ طلبتُ من الحارسة العامة أن تسامحني، لأنني فعلتُ كبيرة، وكثيرا ما أفعل هذا.

بعدما نزلتُ السلم، بدأتُ أراجعُ تاريخَ استيفاضي، وخطابَ الرؤوم لي. إني أحبها رغم ما تكيلُ لي من توبيخ، أعلمُ أنها تريدُ لي الخير. أجدُ في توبيخها المتكرر لذة، فهي تذكرني بطعم الأمومة والحنان، وهذا يجعلني مُصرًا على المُشاكسة حتى أشعرَ بأمي، وحتى أشعر باللذة

أمي هكذا على الدوام توجهُني، لكن هيهات هيهات، أنا لا أسمعُ كما تؤكدُ مرارا، وكما تؤكدُ الحارسة العامة. أُمِّي شابةٌ تبلغُ السادسة والثلاثين، تزوجتُ في سنِّ الواحدة والعشرين، وأنجبتني في سن الثانية والعشرين، ملأتُ كما تقولُ -دائما- حياتها أملا ونغما، وبازديادي توطدتُ صلتها أكثرَ بأبي، والذي يفوقها بأربع سنوات، يبلغُ الأربعين، لكنه خبرَ الزمان، إذا حدثك ظننتُ أنه ابنُ الستين، حكيمٌ أدركَ لذة الحياة، رزقه الله زوجة تحبه، تعتنني به، وتعتنني بالأولاد، وتعتنني بالبيت، دائما ما يشكرُ الله على نعمه. أُمِّي شابةٌ متوسطة القَدِّ، حاملةٌ، لا تضمُرُ لأحد حقدًا أو حسداً، تربي أبناءها على القيم والإخلاص، حادقةٌ لا تصاحبُ النساء إلا قلة منهم، وإلا من تبيّن لها أنهن لا تكثرن المشاكل، لا تحبُّ الكلامَ الكثير، يبدو أنَّ أبي أضافها شيئا من التوابل، ومنحها شيئا من الحكمة

غادرتُ ثانوية ابن هشام الإعدادية بالحي الحسني بالدار البيضاء في سنتها الثانية، كانت ضعيفة التحصيل، مما حتمَّ عليها بعدَ التكرار أن تغادرَ فصولَ الدراسة، وأن تعوضَ الدرسَ التعليميَّ بدرس لا يقل أهمية. وجدتُ في بيتهم مدرسة أخرى، إنها جدتي، والتي أدخلتُ أُمِّي اليافعة إلى درس لا يقل أهمية عن درس العلم، أدخلتها حجرة تشتمل على ماعون، وثلاجة، وفرن، وصُنْبور. وجدتُ ذاتها في هذا الدرس، في سنواتٍ قليلة علمتها الصناعة، وصارتُ تتوبُّ عن الجدة في كثير من أعمال البيت، خاصة الأعمال المتعبة، كانتُ بذلك تحاولُ التخفيفَ عن الجدة من أعمال البيت. صارتُ أُمِّي في ظرف وجيز أما ثانياً لبيتهم، وبعدما كان إخوتها يسألون عن حوائجهم الجدة، صاروا مع الوقت يسألون أختهم. كانتُ بين الفينة والأخرى تتردد خارجَ البيت لإحضار شيء، ولاسيما في أوقات النهار، لأن إخوتها يكونون خارج البيت، منهم من يعمل، ومنهم من لا يزال يتابعُ دراسته. تخرجُ مكرهة وهي لا تفضلُ الخروج لوحدها، ولا العائلة تفضل، هي تحب البيت، ولا تجد أحلى منه. وبينما هي ذات يوم تقصدُ الحانوتَ رآها أبي ولحقَ بها حتى تعرفَ بيتهم، وبقيَ على هذه العادة إلى أن وقعَ الوقوعَ المحمود، وطلبَ فيما بعد يدها للزواج، أقامًا وليمة حضرها الأقارب، وانتقلتُ إلى بيتها الجديد رفقة زوجها

-2-

قصدتُ ابنَ هشام، وفي الطريق التقيتُ آدم، أنا وإياه صديقان نعرف بعضنا بعضا جيدا. يسكن آدم في حيِّ مُجاور، تعلقتُ به لأنه مثلي لا يُذاكرُ دروسه، وفوق هذا يجمعُ بيننا حُبَّ كرة

القدم، لطالما طلبنا من أستاذ التربية البدنية والرياضة أن نلعبها في كل حصة حتى أزعجناه بطلبها المُتكرر هذا، كُنَّا نتمنى أن تصبح جميعُ حصص الدراسة تربيةً بدنيةً ورياضةً، وكُنَّا نتمنى أن تكونَ جميعُ دروس التربية البدنية والرياضة دروسا في كرة القدم، لا أنا أملُ من مُزاولتها، ولا آدم يمل. نحنُ نحبُّ كرة القدم ونبغها، هي العشيقة الخُلوة، ورغم أنها كانت سببا من الأسباب في تعثرنا الدراسي إلا أنها تروخُ عنا، ننسى بها الأحزان، ونعوضُ بها النسيان.

كَمْ من إنسان في المعمور أذلتَه، هي كرة القدم، هي أفيون الشعوب، نلعبُها نحس بالنشوة، ونتركها ساعات نحس بالفجوة. كثيرا ما صارحنا بعضنا أن نبتعد عنها، ونعوضُ حُبها بحبِّ الدروس، لأنها هي النافعة. كنا نظن أننا سوف نحترفُ في يوم من الأيام كرة القدم، ما جعلنا لا نكثرُ لنصائح المدرسين، ولا لتوجيهات المُربين.

كانَ آدم ذا بنية جسمانية، إذا رأيتهُ أدركتُ أنه رياضيٌّ يحب الرياضة، هو صاحب بشرة بيضاء، وشعرٌ بُنيٌّ، وعينين خضراوين عَسَلِيَّتَيْنِ، وفم باسم، تعثرُ في دراسته كثيرا، ورسب كثيرا، نبتتُ بعضُ الشعيرات على وجهه، وزادته جمالا. كان آدم فارح الطول، يسيرُ مُنتصب القامة، عود نفسه على السير هكذا، ربما تكونُ التمارين الرياضية التي نمارسها مع فريق الحي في ملعب الشعاع أضافتُ الشيء الكثير على لياقته البدنية. يُخيلُ للرائي إذا أبصر آدم من بعيد أنه آلي يمشي في ثباتٍ وإصرار، وهو واثق من نفسه إلى درجة كبيرة، رسمَ لنفسه مسارا، يُريد أن يكون لاعبا محترفا في كرة القدم، يمارسُ في إحدى فرق الأحياء، يتميز بالطموح، هو أحسن مني سلوكا، لأنه يحترم المدرب، وفي المدرسة يحترم الأساتذة وباقي الأطر، هو هكذا منذ زمن بعيد، درسَ معي في مستويات أخرى في مدرسة التعاون الابتدائية، وبقيَ على سلوكه هذا في الثانوية الإعدادية. إذا خرجَ من القسم ومن أقسام الدرس يلعب ويلهو دون أن يسبب المشاكل لنفسه، ودون أن يسببَ المشاكل لوالديه، ويكون مرتاحا أكثر إذا كان خارج المؤسسة. لا أخفيكم سرا، كَمْ تمنيتُ أن أكون مثله سوي السلوك، لكن دون جدوى، كآني أنفخ في رماد. ورغم أنه متواضع النتائج، وينجحُ بأعجوبة، إلا أن الجميع يحبه، ويكون له تقديرا واحتراما، كم من مرة كان مضربا للمثل، كأنَّ الأساتذة اتفقوا مُسبقا على إكرامه مدحا.

كل الأساتذة من عهدٍ بعيدٍ يضعون ثقتهم في هذا التلميذ، هو صديق صدوق صادق الوعد مُنصف. أمه تحبه، لا تكيلُ له التوبيخ، وإنما تعامله معاملة اللين، وتكلمه برقة، قد يكون سلوكه المتزنُ السبب، وقد يكونُ تأثيرُ أبويه بلغ المُنَى، أبوه مهندس معماري يعملُ مع شركة العقار الضحى، تزوجَ أم آدم وهي في العشرين من العمر، ويبدو أنه قوم سلوكها كما ينبغي، فهو متفهُف يرسلني وآدم لإحضار إحدى الجرائد من عند كتيبي بحِّي سيدي الخدير المُجاور للمُجمع

السكني الذي نسكته، وهو مُجمع البركة الذي شيدته شركة الضحى في بداية الألفية الثالثة في موقع استراتيجي جدا، بنته في موقع قريب من الشاطئ المشهور عين الذئاب، والذي يستغرق الوصول إليه سيرا على الأقدام نصف ساعة، وقريب من أكبر مركز تجاري بالمغرب، وهو المول كما تسميه الساكنة، والذي ملأته شركات الموضة العالمية بكل جديد، ويضم محلات الملابس، والمقاهي والمطاعم، والأسواق. تجد في المول الأكل والشرب والسياحة وألعاب الترفيه، والمسجد، تزوره من أجل ساعة، وتمر عليك فيه ساعات طوال. تغادر المول تنظر الباعة المتجولين أوفقوا عرباتهم يعرضون حلزونا أو ذرة مسلوقة، أو بطاطس مقليّة، أو فواكة جافة، وتتنظر إلى صف سيارات الأجرة البيضاء أو الحمراء، ولا تلقى صعوبة لبلوغ أي مكان في الدار البيضاء.

أعاملُ أب آدم كما أعاملُ والدي، وهو يعاملني معاملة الابن، لا يفرق بيننا لما نكون معا، وجودُ علينا من بنات فكره، ويقدم لنا النصائح والتي لا تشابه أي نصائح، كأنه خاطها بخيط من حرير، لا تزعجه محبتنا لكرة القدم على خلاف الآخرين، ما يهمله هو أن نبقي بعيدين عن المخدرات والآفات، وكثيرا ما حذرنا من مصاحبة رُفقاء السوء مُعللا كلامه بأننا نسكن في حي مجاور لأحياء هامشية أثرت في حيننا، ووصلت حِمْمها إليه. هو يرى أن الرياضة سوف تبقىنا في منأى، وربما إن لم ندرس -حسبه- فتح الله علينا فيما بعد، الأهم ألا نقرب الآفات، وأن نتجنب الفاسدين.

كنا نرتاح إليه كثيرا كأنه صديقنا، لا نخفي عليه أمرا صغيرا أو كبيرا، نحدثه عن مُغامراتنا، وأحيانا نضحكه حتى تبدو لهائته، لا يُعاتبنا، ولا يغضب علينا، شعاره الحوار والتواصل، ودأبه الإصلاح بالنصيحة، يقومُ أخطاء ابنه باليسر.

أرتاح لأسرة آدم وهذا وطد علاقتي به وبأسرته، أسرته مدرسة، أبوه رجل أخذ نصيبا من الثقافة، وأمه تشترك مع أمي في مجموعة من الأمور، هي الأخرى كانت متواضعة في دراستها، غادرت مقاعد الدرس في سنتها الثالثة من الثانوي الإعدادي، وأبدلت درس الفصل بدرس المطبخ، أحببت المطبخ، تشتري كُتبيات صغيرة في فنّ الطبخ، تحب أن تتعرف الجديد، تزور الأسواق دون أن تكثر على زوجها الطالبات، باتت تعرف وقت الشدة والرخاء، تأخذ ما تحتاج فقط، ليست في خانة المُبدرات، ولا في خانة إخوان الشياطين، تنفق على قدر الحاجة، وهذا جعلها تزيد ببيتها درجات اجتماعية. تبحث إذا ما سنحت الفرصة في بعض المواقع الاجتماعية، والتي تتصفحها للتعرف على جديد المطبخ والحلويات، وما يزيدها حكمة أنها تأخذ ما هي مُحتاجة إليه، لا تنفق كثير وقت في التصفح، ولا تبذر وقتها. ملأت منزلها حبا، تحب زوجها، وتحب ابنيها، تنظرها تغسل وتكنس، وتنظف، وتطهو ما طاب، وترعى ولدها، وتحفظ



ابنتها، وتقرأ القرآن، وتترددُ على المسجد بعدَ العصر لتحفظ شيئاً من القرآن، وتحرصُ على تعلم قواعدِ التجويدِ رفقةً أستاذتها. لا تكثُرُ الكلام، تتكلّمُ في خير أو تصمت، ينصَحُها زوجها بالتردد على مسجد العليّ، وتتخلّفُ عن مواعيدِها مع أستاذتها كلما زار الأسرة حبيبٌ أو قريب. وتنظرُها توصلُ ابنتها إلى مدرسة التعاون، وتحضرُها منها، هي لا تخاف من بنتها وإنما تخافُ عليها، أما آدم فقد كانت تفعلُ الفعلَ نفسَه معه، لكنّ لما بلغَ ابنَ هشامِ اطمأنتُ عليه، لأنها على علم أنه أخذَ المناعةَ الكافية، وأنه يؤثّرُ السلامة على الندامة.

أحس بها كأمي، إذا كانتُ أُمي تنصحنِي في البيت، هي تنصحنِي خارج البيت، وإذا كانتُ أُمي توبخُنِي، هي لا تفعل، بل تنصَحُ ولا تغضب، تصبرُ حتى ترى نصيحتها على الواقع. إنها قدوة تعرف دورَها في الحياة، تبني ابنيها، وتشيدُ أساسهما، ولا تبخلُ على من تلقّتهم من الناس، وكل من كَلَمَها يحبّها، ويقدرها.

واصلتُ المسيرَ مع آدم، ولا تفصلنا عن المؤسسة إلا دقائق، وبدأنا نتحدث عن مباراة الجمعة، يوم الرابع والعشرين من يناير 2020م، على الساعة الثامنة بالتوقيت المغربي، على الساعة السابعة بالتوقيت العالمي والتي دارت أطوارُها بين فريق الوداد البيضاويّ واتحاد العاصمة الجزائريّ، برسم الجولة الخامسة من دور المجموعات من عُصبة الأبطال الإفريقية، وانتصرَ الأحمرُ بثلاثية لهدف.

أشاهدتُ مباراة البارحة؟ -

يا آدم، هل هناك وداويّ ومُحب لكرة القدم لم يشاهد المباراة؟ شاهدتها واستمتعتُ -

الوداد هاجم من الدقائق الأولى، كان يعلمُ أنّ الفوزَ يؤهله، وأنّ غير ذلك يدخله في حسابات -  
الجولة الأخيرة

ضغط الوداد وسجل، بدا أنه يبحث عن الفوز. سجل وليد الكرتي، وحرّر اللاعبين، وبينما -  
الجزائريون تائهون سجلَ بديع أوّك الهدف الثاني، وفي آخر دقائق الجولة الأولى يُسجَلُ الوافدُ الكونغوليّ كازادي هدفَ الخلاص.

خرج الوداد في نصف المباراة الأول مُنتصراً، وفي الجولة الثانية سجل اتحاد العاصمة هدفاً -  
حفظ به ماء الوجه.

نرجو أن تفوز الرجاء اليوم على الترجي الرياضي التونسي حتى تكتملَ فرحة البيضاويين، -  
وفرحة المغاربة.

صدقت يا صديقي -

وصلنا باب ابن هشام، دخلنا من الباب، وصلنا إلى الساحة، وكانَ الجرسُ الأولُ قد دقَّ. اختلطنا مع بعض التلاميذ، والموضوعُ دائماَ مباراة يوم أمس، تحدثنا قليلا، وانقسمنا إلى جماعتين، جماعة ترى أن الوداد أفنَع نتيجة وأداء، وجماعة متعصبة -تعشُّق الأخضر- ترى أن الودادَ لا يستحقُّ بلوغ دور الربع الذي عبَره قبلَ جولة مع ماميلودي صانداوز الجنوب إفريقي. أشادَ الجميعُ بدور الجمهور، والذي باتَ محل ثناء من قبل متتبعي كرة القدم، والذين يرونَ الجمهور الوداديَّ جمهورا مُبهرا، بهزَّ العالمَ أجمعه، ويشتركُ هذا مع جمهور الخضراء، هما معا يشتركان الريادة، ويُعرِّفان بكرة القدم الوطنية

صوتَ الجرسُ الثاني، وتوجَّهنا نحو القاعات، الجرس الثاني يعلنُ أنَّ التلاميذ عليهم أن يقفوا في صفوف قرب قاعاتهم للدخول مثنى مثنى، إلا أن هذا غير ممكن معنا في مادة الفرنسية، لأننا فيها غير ملتزمين، ولم نفكر يوما في الالتزام، وعلى العكس تماما تجدنا ملتزمين في موادَّ أخرى، وتجدُ الانضباط، وتجدُ السكينة، وتجدنا نحبُّ المادة، قد نتعثرُ في التقويم، لكن لا نحقدُ على الأستاذ، لأننا نعلمُ أنه قامَ بالواجب، شرحَ وشرحَ، واستقرتْ خطبته في القلوب، وفسرَ وفصلَ، وأيقظَ النيام، ووجهَ وأرشدَ، ووعظَ ونصحَ، وهذه المهاراتُ لا توجدُ إلا في أستاذ التربية الإسلامية وأستاذ اللغة العربية. أذكرُ كم كنا فرحين في بداية الموسم الدراسي، لما عرفنا أننا سوف ندرسُ عندَ الأستاذ والأستاذة المحترمين، وإذا فرحَ أمثالي من المتعثرين فما بالُ الأذكياء، ومحبيّ الدرس، قد كانوا أكثرنا طربا وفرحا

-3-

وقفنا قرب القاعة مجموعاتٍ -لا ننتبهُ لصَفِّ- بعدما رنَّ الجرس، وكانت الحصة حصة اللغة الفرنسية، والتي كنا نمقتُّ ونمقتُ مدرستها، كان لا يحب مادته، ولأبسط الأسباب يدخل في كلام ثنائي مع أحدنا، باتَ سلوكه مألوفا. على طول الحصة على قدر المشاكل مع الأستاذ، لا تعلمُ نحوُّه ولا معرفة، نخرجُ كما دخلنا. نزعجُ الأستاذ بعبتنا، ويُزعجنا بدُخان سيجارته ورائحتها الكريهة، ورغم أنه يخرجُ أمام باب القاعة إلا أن الرائحة تفضلُ الدخول، هي الأخرى كانت حليفة معه علينا، تدخلُ إلى الداخل، ونشعر -حينها- بالاشمئزاز، ونزدادُ حقا، ونزدادُ كرها للمادة وصاحبها الخامل، والذي لا يبدي استعدادا للتغير

هذا الأستاذ قصير، زاد لسانه طولا وجدة، لا يهتمُ بأناقة، ولا ينظر إلى جمال، لا يأخذ زينته، يرتدي الملابس نفسها طول السنة، تدرسُ عليه، وتلتقيه بالملابس نفسها في الموسم الدراسي الموالي. لا يجيّدُ التواصل مع التلاميذ، ولا يُجيدهُ مع باقي أطر المؤسسة، دائم الخلاف

مع التلاميذ والأطر، دائم الشكوى، يشتكي، ويظن أنّ الكل ضده. يكلمُ سيجارته، ويفضلها على ألوان البشر، ويشكو لها سوء حاله، وسوء طالعها، وتحالف العالم عليه، وتقاذف المصائب إياه. إنه إطار سوء، وصديق سوء طول الموسم الدراسي، يتجنبه التلاميذ، ويتبرمه الأساتذة، لأنه يغضبهم، يصفحون عن زلته، وما هي إلا أيام حتى يعيد الكرّة. هو شخصية لا تتفاهم، يُحكى أن ما مرّ من أيامه كان صعباً، مرّ بطفولة البؤساء، لم يعرف طعم الحياة اللذيذة يوماً. ساهم في تعكير حياته، وكلما كان يفاجئه سرورٌ يبحث عن إبعاده، يريدُ أن يموت على الحزن، وأن يتجرع مرارة العيش.

لا نعرفُ ماذا ندرسُ، هل ندرسُ -عند هذا الأستاذ- درسَ علم أم يحضرنا لتعلم الدفاع عن النفس؟ يخطئ ولا يعتذر، يلعنُ أهلَ الأرض أجمعين، يلدغ -بلسانه- الإنس ولو كانوا من الصالحين. سلاحه المقذع من القول، ما فرح من صاحبه، وما ارتاح من كلمه، وما سعد من قابله.

نستمر -بين يديه- في العبث، ونواصلُ الصراعَ بيننا، وقد يكون الصراعُ بيننا وبينه، نتعاونُ على أذيته، ويتعاونُ مع نفسه على النكايّة بنا، هو جماعة ألسن لا تشفق ولا ترحم. كلما وجدَ لسانه تلميذاً خلوقاً إلا وازدادَ قبحاً ونشاطاً، وسباً للتلميذ، كان لا يخجل من توبيخ التلاميذ، وأحياناً يتقوه بألفاظ جارحة تخدش الشعور وتدمي الأحاسيس. يجلسُ إلى المكتب لا يبرحُه، لا يسعى إلى قيام، ولا يخاطبُ أيّ ونام، لا يحترّم إلا سيجارته، يقفُ لها احتراماً وتبجيلاً، يخفت ويُخرجها من علبة حمراء، وكلما قربها من فمه زادتْ نشوته فقطعَ كلامه مع الصبيان، تنقله إلى عالم التأمل والتفكير، فيمّ يفكر؟ لا ندري، ولا نريدُ أن ندري، ما نريدُه هو أن يبتعدَ عن إثارة مشاعرنا، وعن سبِّ آبائنا، ودمّ آباء آبائنا

بينما نحنُ في حرب لا تنتهي مع الأستاذ يدقّ الجرس وما انتفعنا، وما ربخنا درسا، بل كنا في حرب ضروس طويلة الأمد، تمر ساعة نزداد فيها كرهاً للغة موليبير ولُمدرستها المريض سلوكه.

نغادرُ القاعة إلى قاعة أخرى، نقصد فيها درسا آخر، وأستاذاً آخر، وهو أستاذ اللغة العربية المُبجل، والذي يُوقره كل من في المؤسسة. هو شاب يبلغ حوالي الأربعين، يحفظ من القرآن، وربما يكون جمع القرآن كله حفظاً، لا يخلو درسه من استشهاد من القرآن، يحفظ الأحاديث الصحيحة، ويستشهد بها أيضاً، ويحفظ الكثير الكثير من الشعر قديمه وحديثه، ويحفظ أقوالاً من الكتب. ندرسُ الدرسَ ويكونُ جميلاً، يرفقه أستاذنا العبقريّ بالإفادات الكثيرة، ويرفقه بالشرح الكافي والتفصيل. يحبه الجميع، يعاتبنا أحياناً، أو يُعاتبُ واحداً منا، لكننا لا نغضب، نحبُه ونعلمُ

أنه يعاتب لمصلحتنا، يعاملنا مُعاملة الطبيب لمريضه حتى يزيلَ عنه المرض. يخافُ الله ويحذره، لا يقولُ لنا هذا، بلْ نفهمه من سلوكاته، وأفعاله، وأقواله. يتمتعُ بشخصية لمْ نعهدها إلا عند بعض الأساتذة.

يظهر الأستاذ أمام باب القاعة، نمر -من الممر- على بعض القاعات، وما إن يصل أوائل التلاميذ عتبة حُجرةِ الدرس، تجدهم يصطفون مثنى مثنى، ينعزل الذكور على يمين الحجرة، وتقصد الإناث يسار الحجرة. ولحد الساعة لمْ ينبس الأستاذ ببنتِ شفة، لا يزال واقفاً، ناصباً عينيه باتجاه الصفِّ إلى أن يصطف آخر تلميذ. يكلمنا بلغة العيون، ربّانا على المبادئ، صاعناً كما أراد، ويا لها من صياغة أحلى، بنى أركاننا، وأسس بُنياننا، وحسّن أخلاقنا. يقصده زائرٌ، وترى التعجبَ في عينيّ الزائر، وكأنه يشكرُ الأستاذ على ما صنع وأبدع، ويزدادُ الزائرُ حيرة إذا كان من الذين يعرفوننا جيداً، ويدركون أننا من المُشاكسين.

هذا أستاذ تعرفه الأطرُ، يؤلفُ الكتب، ويقولُ الشعر، وتنشر الجرائدُ مقالاته، وتذيعُ روائعه. ينشرُ في جرائدَ ورقية وإلكترونية، ونصوصه مطلوبة، تتميزُ بجودة الأسلوب، وكثيراً ما يُدعى إلى ندوة أو مسابقة أو لقاء فكريّ. لا يحب الكسل، ويرى أن أصحاب الكسل أبعد الناس عن الخير.

يكتملُ الصف ويشيرُ لنا بالدخول، نلجُ القاعة، نجدُ الأستاذ قد كتَبَ التاريخ، وأتبعهُ العنوان، وفتحَ بين يديه الكتاب، قصدَ الصفحة الثانية والثمانين، وعنوان النص هو التفاعل الحضاري، يسجلُ الأستاذ الغياب، ويبدأ بأسئلة لتقديم الدرس، ويسألنا لتحليل العنوان والصورة، ونقترحُ فرضية، ونمضي مع الأستاذ لقراءة النص، يقرأ أولاً، ونعيدُ خلفه، نتوقفُ عند كلمات غير مفهومة نشرحها، ولما ننهي القراءة نحدد نوعية النص ومصدره، وفي الأخير نحدد فكرة للنص. كان النص للكاتب اللبناني قُدري طوقان، وكان يتحدث عن الحضارة الإنسانية، وعن تفاعل الحضارات لبناء حضارة كُلية ساهم فيها المسلمون مُساهمة كبيرة، حيث برعوا في الرياضيات والحساب والبصريات والكيمياء والطب والصيدلة، وأضافوا إضافات وابتكارات.

ينتهي الدرس ولم نشعرُ بالملل، يشيرُ الأستاذ إلينا لكتابته، نكتبُ في آن واحد، دربنا على هذه الطريقة، وأصبحنا نعتادُها مع مرور الحصص، لا ترى هذا ينادي هذا، أو هذه تكلمُ تلك، الكل منغمس في عمله. وبينما يحس الأستاذ أننا وصلنا إلى نصف الكتابة أو أكثر منها يطوفُ بين الصفوف، يوجهُ هذا، ويأمرُ هذا بتصويب كلمة نقلها خاطئة، ويصحح كلمة على لوح، وهكذا.

ننهي الكتابة ويدق الجرس، نغادرُ ونستريح عشر دقائق في ساحة المدرسة، ثم يدق الجرسُ مرة أخرى، ونقصدُ قاعة مادة الفيزياء والكيمياء، ندخلُ وندرسُ. لم نكنُ نمقتُ مادة الفيزياء

والكيمياء، ولم نكن نحبّها، كُنّا ندرسها عند أستاذة في بداية مشوارها الوظيفي، كانت تدرسنا درسا عاديًا، لا تزيدُ في الدرس ولا تنقصُ منه، كان الهامّ عند الأستاذة هو الدرس. تبتدئُ بالتجربة، نلاحظ وهي تشرح، ثم نبدي آراءنا المختلفة في الذي شاهدناه، هل هو دخان يتصاعد؟ هل شاهدنا فرقعات؟ كيف كان لون المحلول؟ ما اللون الظاهر؟ وغيرها من الأسئلة التي تطرحها الأستاذة، ونجيبُ عنها نحن. التجربة هي بداية الدرس في هذه المادة، ومن هناك نخط على الورق، نسجل نقط الدرس

دخلنا وبدأ الدرس، كان حول البصريات. قدّمت الأستاذة بالشرح ما ينفَعنا، ثم بعدَ ساعتين متتاليتين دقّ الجرس، وكّم كنا نفرحُ لما يدق جرسُ آخر حصة من يوم السبت، لأنه كان يُعلِنُ عطلة نهاية الأسبوع

عدتُ مع آدم، وعند اقترابي من شقتنا ودعتُ صديقي، وضربتُ معه موعدا على الساعة الثالثة، لأننا على موعد لمباراة في كرة القدم في ملعب الشعاع على الساعة الرابعة. الملعب قريب من مُجمَع البركة، بل إن عمارات من المُجمَع تحيط به، وتطل عليه، حيث يمكن أن تشاهد مباراة من فوق سطوح بعض العمارات، وتتمتع بأفضل مُشاهدة من هناك

صعدتُ السلم بسرعة، وصلتُ إلى الطابق الذي توجدُ فيه شقتنا، طرقتُ الباب ووصلني صوتُ أختي

مَنْ يطرقُ الباب؟ -

رددتُ بصوت هادئ

إنه أنا. افتحي بسرعة -

فتحتُ أختي الباب، دخلتُ، وقصدتُ أمي قبل أن أضعَ محفظتي، وقبلَ أن أغيرَ ثيابي

أمي، هل الطعام جاهز، إني جائع -

الطعام جاهز. ضعَ محفظتك واسترخِ بعض الدقائق حتى أضعَه بمساعدة أختك فوق المائدة -

قصدتُ الغرفة التي أشرتُها مع أخي وأختي، غيرتُ ملابسي، وارتديتُ ملابس رياضية، كنتُ لا أرتاح إلا للملابس الرياضية، وأفضلها على سائر الأكسيّة. وما هي إلا دقائق حتى سمعتُ أمي تنادي، قصدتُ المائدة، وكان فوقها سمك السردين مشويا في الفرن، وسلطة، وبطاطس مسلوقة، وزيتون أسود، وشاي تفوح منه رائحة النعناع

رميثُ الطعامِ في جوفي، والكل أنظرُهم يضحكون، وأمي تشرح

على مهل، الطعام لا يزال ساخنا سوف تحرقُ أمعاءك، ربما تؤلمك معدتك مرة أخرى -

تذكرني أمي بمعدتي، وما كان عليها أن تفعل، ربما تذهبُ شهيتي. تعلمُ أمي أن معدتي تؤلمني في كثير من الأحيان، وتقولُ إن السبب هو هذا الأكل السريع دون مضغ كاف، وهو الأكل الساخن. كنتُ أسرعُ حتى أقصدَ الهاتف الذكي لأمي، وهذا ما يجعلُ الجميع يضحك، يعرفون أنني أقصدُ تافها، وأنصرُ هاتفا

أكملتُ غذائي، لم أتلذذ بكأس الشاي الذي كنتُ أحبه، منعني الفضاء الأزرق وتفاهاته، والواتساب، وأنستاغرام، وأصابتني هذه المواقع بالعمى، وأصبحتُ غريبا عن أهل البيت، وهم غرباء عني. كنتُ أضيعُ وقتي في التفاهات، ولو أنني أنفقتُ وقتي في الدرس لكنتُ من المتميزين، ولجانبُ الخصام في المؤسسة، ولصالحُ أبي، ولأفرحتُ أمي ومعارفي

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع عندما فتحتُ واجهة الهاتف، دخلتُ حسابي على الفضاء الأزرق، وبعد ثوانٍ كنتُ أتحدث مع هذا المشجع الودادي، وهذا المتعصب الرجائي، وهذا المهووس بالكرة، وهذا الذي ينتمي إلى جمعية المشجعين الفلانية، وكنتُ مع خبر انتقال المدرب الفلاني واللاعب الفلاني. لم أنتبه إلى الوقت، مرّ بسرعة، وجدتُ الثالثة إلا خمس دقائق، وكان عليّ أن أجمع الملابس الخاصة بي، كان عليّ أن أجمع القميص الأحمر، والتبّان الأبيض، والجوارب الحمراء، والحذاء الأسود، وأن أتجه صوب آدم

جمعتُ ملابسي في لمح البصر، وقذفتها في حقيبتني، وخرجتُ خروج المسرع. وقفتُ بباب العمارة التي يسكن فيها آدم، ناديتُ بأعلى صوتي، وبعد هنيهة أخرج آدم رأسه من النافذة، وطمأنني أنه سينزلُ حالا، وما هي إلا ثلاث دقائق أو أقل حتى رأيتُ الصديق يخرج من باب العمارة متجها نحوي، وقد حمل هو الآخر حقيبة وضع فيها ملابسه الرياضية. اتجهنا إلى ملعب الشعاع، وصلنا بسرعة، لأنه لا يبعد عن الحيّ. دخلنا من الباب متجهين صوب مُستودع تغيير الملابس، رأينا المدرب قرب المستودع مع بعض رفاقه، سلمنا ودخلنا، وجدنا أغلبية لاعبي الفريق وصلوا. وصلنا خبر من المدرب، يدعونا لتغيير ملابسنا، والخروج إلى الملعب لإجراء تسخينات قبل المباراة، والتي سوف تنطلق مع تمام الرابعة

بدأنا الجري، ثم قمنا ببعض الحركات وجهنا للقيام بها المدرب، ولما تبقتُ خمس دقائق على زمن المباراة جمعنا المدرب، وأعطى التشكيلة الرسمية التي سوف تخوض المباراة، وترك ثلاثة لاعبين إلى الشوط الثاني أو إلى تغيير اضطراري. كنتُ أنا وآدم ضمن التشكيل الأساسي،

لا يمكن الاستغناء عنا، نحن عمودُ الفريق، نلعب دوراً أساسياً فيه، وكل فوز نفوز نكون ساهمنا مساهمة فيه.

انطلقت المباراة، كنا نتجمع على الكرة، لا نعرف أن لكل لاعب مركزاً، كثيراً ما كلمنا المدرب عن هذا، لكننا لم نطبقه بعد. مرت ثلث ساعة على التقريب، أخرجتُ كرة من الوسط، احتفظتُ بها قليلاً ثم مررتها إلى الجناح الأيمن للفريق، والذي كنا نسميه الريشة، تبعها كالأرنب إلى أن حاصرها قرب الزاوية، وبينما يقترب اللاعبُ الخصم منه رفعها باتجاه الرؤوس، وكم كنتُ فرحاً لأن المكان الذي سوف تنزلُ فيه كان فارغاً، ركضتُ كمتسابق في أمتاره النهائية، وما كادت الكرة تلمسُ الأرض حتى وجدتي قذفتها في زاوية فارغة في الشباك. ركض اللاعبون يقصدونني، وأنا أحتفلُ بالهدف احتفالَ الكبار. لا أخفي أنني كنتُ في تلك اللحظة بعد تسجيلي للهدف مباشرة أظن أنني لاعب محترف. واصلنا المباراة، وواصلَ الخصم بحثه عن هدف التعديل، لكن باءتْ خطته بالفشل، وتبعثر نصف ملعبه، وأمسى مكشوفاً. صفرَ الحكمُ معلناً نهاية الشوط الأول، وأخذنا استراحة جمعنا فيها المدربُ من جديد، وبدأ يوجهنا، ويحاول أن يعدلَ بعض المراكز التي كان يعتقدُ أنها قد تأتي بهفوة. ولا أنسى أن المدربَ نوهَ بي وبمجهوداتي أمام الجمع من اللاعبين. صفرَ الحكمُ، ودخلنا رقعة الملعب، وكان معنا لاعبان أقحمهما المدربُ مكانَ آخرين، وبقيَ لاعبٌ واحد في مقعد البدلاء. صفرَ الحكمُ لبداية الشوط الثاني، وظهرَ الخصمُ في ثوب الخاسر الذي لن يخسرَ شيئاً إن واصلَ سعيه وراء هدف التعادل. واصلنا على نهج الشوط الأول، وعند اقتراب المباراة من نهايتها رد آدم كرة عالية برأسه، وسقطتُ عند متوسط ميداننا، والذي استقبلها بصدرة وأدار جسمه الرشيق باتجاه مرمى الخصم، وهي تتدحرجُ أمامه رفعها في اتجاه ظهر الخصم، واتجه رأس حربة الفريق نحوها، لم يلمسها إلا بقذيفة في الزاوية البعيدة عن الحارس الذي اكتفى بمتابعتها وهي في الشباك. فرحنا بالهدف الثاني كما احتفلنا بالهدف قبله. استأنفنا اللعب وبعد دقيقتين صفرَ الحكمُ لنهاية المباراة.

قصدنا المستودع، أخذنا حقائبنا، وعدنا أدرجنا إلى منازلنا بعدما ودعنا المدرب. وفي الطريق بدأتُ أتحدث مع آدم عن مباراة الترجي التونسي مع الرجاء البيضاوي برسم الجولة الخامسة من دور المجموعات من عصبة الأبطال الإفريقية، وكانت هذه المباراة مع الثامنة مساءً بالتوقيت المغربي.

صعدتُ السلمَ أشعرُ بالتعب، طرقتُ الباب إلى أن فتح. وجدتُ الشقة مليئة بالأحباب، إنها جدتي وجدتي. أمسكتني جدتي وجرتني عندها، لأنني كنتُ فتاهاً المدلل، وبعدها سلمتُ على جدي، وكنتُ أحبه هو الآخر حبا جنونياً. كان يروي لي قصص بطولاته ويحولُ نفسه إلى بطل لم تلد الأمهات مثله، وكان يحدثني عن مشاكسات أمي لما كانت في مثل سني أو أصغر، وكان

يحدثني عن عمله مع شركة وتمرده على سيده ورئيسه في العمل، وعلى عدم شعوره بالخوف منه، وهل يخاف من بشر من لحم وعظم ودم؟

بدأت جدتي الغالية حديثها معي عن أمي وحدائقها، وإتقانها شؤون المنزل، وعن أخلاقها واحترام الناس لها بعدما احتلت مكان جدتي، حتى تحولت جدتي من معتنية بالضيوف إلى مستقبلة لهم. كانت جدتي تستقبل ضيوفها، وتقوم أمي بما يلزم في تلك المناسبات. ورغم أنني سمعتُ هذه القصص من جدي وجدتي مرات إلا أنني كنتُ أجدُ فيها سلوة وراحة

على طول جلستي مع جدي وجدتي واصلتُ أمي خطابها مشيرة إلي أن أقصد الحمام حتى أزيلَ عني عياء المباراة. اتجهتُ نحو الحمام، وبعد ربع ساعة خرجتُ. تذكرتُ المباراة، استعطفتُ أمي بعض الدراهم أمام ووجود جدي وجدتي حتى لا توبخني مرة أخرى على مطالبي التي لا تنتهي، وحتى أربح دراهم أخرى من عند الضيفين الغاليين. أخذتُ حاجتي، اتجهتُ إلى مقهى جديد بالحي ونظيف لا يدخله إلا قلة من المدخنين. كان من شروط أمي أن أجلسَ قربَ مخرج المقهى حتى لا أستنشق دخان السجائر، وكنتُ -أنا أيضا- لا أحب الدخان ولا السجائر، كان يشعرني منظر مدخن بالاشمئزاز. بدأت المباراة بين الرجاء والترجي على الساعة الثامنة مساء بالتوقيت المغربي، وانتهتُ بهدفيْن لكل فريق، وضمنَ الفريقان التأهل إلى دور الربع قبل جولة سادسة

-4-

لم أستيقظ صبيحة يوم الأحد باكرا، كنتُ كلما فتحتُ عينا إلا أغلقتها بسرعة من كثرة شعوري بالنوم، لم أنم طول الليل، بقيتُ أحمُ على الفضاء الأزرق، تعددتُ مواضيع الأمسية على الفضاء، ما بين مدافعة عن فريق الوداد وتعصب على الرجاء وباقي الفرق الوطنية، والمواضيع لا تنتهي. نظرتُ إلى الساعة فإذا بي أصدَم، وجدتها الرابعة صباحا، وكاد جفناي يُغلقان من كثرة الشعور بالنعاس، وأحسستُ بسخونة في الأطراف، وبالعياء الكلي، وبالذوار

كلما وصل إلى سمعي صوتٌ من اليمين أتقلّبُ شمالا، وكلما وصل إلى سمعي صوتٌ من الشمال أتقلّبُ يمينا. كنتُ أسمعُ أصواتَ أواني المطبخ تحركها الأم، تضع إبريقا على الموقد، وترتبُ كؤوسا، وتسخنُ خبزا، وتحضرُ كعكا، وتعد طعام الغداء، وتضعُ ثيابا في الغسالة، وأنا: أتكلّم مع نفسي

ألا يمسها العياء؟ -

لا، إنها من حديد. متى استيقظتُ هذه الحنون -



.إنها آلة لا تصدأ. منذ أن عرفتها، حادقة، تطيع زوجها، وترعى أبناءها -

.يا لها من أم! هل جميع الأمهات هكذا؟ سامحيني يا أمه -

.إنني صغير أمام كبيرة، وأمام صاحبة همّة -

.تستحقين كل الاحترام. لو كانت الأمهات مثلك لارتاح المجتمع، وزادت الدول، ونما عطاؤها -

وأنا أحدث نفسي سمعتُ صوتا قويا، يبدو أن صاحب الصوت غاضب مني، ماذا فعلت؟ هل ارتكبتُ كبيرة؟ وما كادت بقية النوم ترحلُ عني حتى عرفتُ مَنْ تنادي، ومن غيرها؟ إنها أمي، أزعجتُها في هذا الصباح، أعيها النداء، وجرتِ الغطاء من فوقي، وفي أقل من دقيقة وجددني مُنتصبا أرتبُ منامتي، وأقصدُ الحمام. وصلتُ عتبة الحمام وسمعتها

لا حول ولا قوة إلا بالله، ولد مشاكس، ينأى على الصلاة، ويفضلُ الهاتف، وتعجبه الملاهي، -  
يلهو إلى ما لا نهاية، يا رب غيرِ سلوكه ونورِ دربه

:رأنتي توقفتُ أمام العتبة أنظر إليها ولا أنبسُ بكلمة، كأنني أعاتبها. ونفسي تقول لها

.إنه الصباح، اتركيني في أحلامي، ودعي نهاية الأسبوع تمر حلوة وعسلا -

قرأتُ أفكارِي في لمح البصر. لازالتُ مشغولة، وهي تواصل عملها استمرت في توجيهها  
وتوبيخها

.انظر إلي يا مغرما بالهاتف. أتنام عن الصلاة وتفضل الجماد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله -

غسلتُ بسرعةٍ واتجهتُ إلى المائدة، وجدتُ الفطورَ لا يزال فوقها، الجميع تناولَ الفطور  
سوى أنا، تركوا المائدة إلى أن أتناول فطوري. ما إن اقتربتُ من المائدة حتى سمعتُ قهقهات  
أخي وأختي، من جديد يتهامسان، ويتكلمان كلاما غير مسموع. أنا أعلم أن جميع الإخوة  
المتقاربين في السن في الغالب لا يتفاهمون، لكن أخي وأختي كسرا القاعدة، يتفاهمان في كل  
شيء، المواضيع التي أكون عنوانها البارز قوتُ علاقتهما، لا يتخاصمان، ولا يتشاجران،  
يتفاهمان تفاهما دون كلام، وأحيانا يتفاهمان بالنظرات. أصبحت أشعر أنني من قوى علاقتهما،  
لأنني محور كلامهما. ما أسعد أخي وأختي! كثيرا ما رجوتُ أن أكون مثلهما حتى ترضى عني  
أمي أولا، ويرضى عني أبي، وحتى أكون مرتاحا. يتابعان دراستهما بتفوق، وفوق هذا ارتاحا  
من لسان أمهما، ويبدوان أكبر من سنهما. هل أنا الكبير أم هما؟ وهل أنا الصغير أم هما؟

حاولتُ أن أكون مثل أخويّ لكن دائما ما كنتُ أخفق، ويصعبُ عليّ الأمر، ويصبحُ معسرا، وأجد صعوبة في التطبيق. لا ينقصني الذكاء ولا تنقصني العطايا الربانية، تنقصني الإرادة، وينقصني العمل، وينقصني الإصرار.

تناولتُ فطوري بسرعة من يخشى الفؤت، واتجهتُ إلى حيث يوجد المحمول، إنه محمول أمي، لكنّ بمعاشرتي له أصبح كأنه في ملكيتي، وكثيرا ما أفرغتُ بطاريتَه من جراء كثرة الاستعمال، وأزعجتُ أمي. تركتُ بعض الرسائل لبعض الأصدقاء الافتراضيين، ولعلمهم: يردّون، عليّ أن أفتحَ الفضاء الأزرق. وجدتُ رادّا على رسالتي

الرجاء تتعادلُ مع الترجي الرياضي التونسي بنتيجة إيجابية، وتتأهل إلى دور الثمانية -

أعرف المُرسِل، إنه صاحبُ الحساب ابن الخضراء، وهو رجاويّ متعصب، يعشق الفريق الأخضر، ويكره غريمه التقليديّ. يبدو أنه في غاية السرور والانشراح. عليّ أن أترك لهذا الولهان رسالة:

مبارك للرجاء، ومبارك للوداد. ربما نلتقي في دور الربع -

كأن الفتى - هو الآخر - كان ينتظرنِي، وردّ على رسالتي بسرعة وهو في كامل عصبِيته

لماذا تبارك للوداد؟ فريق تأهل بالصدفة، أو قلّ شبه فريق تأهل بالصدفة، انسَ أمر الوداد، إذا - ما أسفرت قرعة الربع عن التقائنا سوف نتأهل على حسابكم كما فعلنا في الكأس العربية، وأقصدُ كأس محمد السادس لكرة القدم. أنتم أضعف فريق تأهل إلى الربع، لهذا أرجو أن نلتقي معكم.

بعد أيام قليلة تجرى القرعة، وتسفر عن التقاء الوداد مع النجم الساحل التونسي، وعن التقاء الرجاء مع مازمبي الكونغولي. وما هي إلا أيام وأجريت مباريات الذهاب، وانتصر الوداد بهدفين، وانتصر الرجاء بهدفين. وفي مباراة الإياب انتصر مازيمبي بهدف جعله خارج المنافسة، وانتصر النجم الساحل بهدف جعله خارج سرب الكأس الغالية.

تأهل فريقان مغربيان، وفريقان مصريان، وأصبحت الكأس بين المغرب ومصر. أسفرت قرعة نصف النهائي عن التقاء الوداد بالأهلي المصري، والذي التقى بالوداد سابقا في نهائي البطولة نفسها سنة 2017م، وخطف الوداد الكأس، والنجمة الثانية في تاريخه. والتقى الرجاء بالزمالك المصري، والذي تأهل ويحمل ثوب بطل كأس الاتحاد الإفريقي في نسخته الأخيرة، وفاز بها على حساب نهضة بركان المغربي.

كم تمنيت أن يلتقي الوداد بالرجاء في النهائي حتى تبقى الكأس في المغرب، لكن هيهات، لأن الأمر صعب أمام فريقين تمرسا على مثل هته المنافسات، وعانقا الكأس السمراء مرات، ويتقاسمان بينهما ثلاثة عشر لقبا، أحرز الأهلي ثمانية، والزمالك خمسة. الأهم أننا في المنافسة، ويضم فريقانا خيرة اللاعبين الذين اعتادوا مثل هذه البطولات

-5-

بضعة أيام على تأهل الفريقين البيضاويين، وحديث العالم حول فيروس كورونا. كورونا أربع الجميع، وأتعب العالم، ملأ الدنيا وشغل الناس، وأوقف البطولات العالمية، حصد أرواحا في الصين، في أمريكا، وفي إفريقيا. انزلت دول، وكان لها قصبُ السبق في زيادة الانعزال الذي نفعها وسيجها لكانها فوق الكوكب لوحدها، ولا تشاطرها فيه دولة أخرى. ومن ضمن الدول المنعزلة المغرب الذي أغلق على نفسه بعدما أصبح في المرحلة الأولى من تفشي الوباء، وظهر أول إصابة في الثاني من مارس

الجمعة 18 رجب 1441هـ، 13 مارس 2020م، والمكان ابن هشام. وجدتُ الجميع -صباحا- يتحدث عن الفيروس، وكأن العالم اتفق على هذا. رأيتُ أبي أمس يقلبُ القنوات الإخبارية ويتعوذ. القنوات كلها تتحدث عن كورونا، مَنْ كورونا هذا حتى ينال هذا الفضل؟

في الصين كورونا، وفي إيطاليا، وفي إسبانيا، وفي فرنسا، وفي إيران، وفي العالم، مَنْ يكون؟

أَيكون مرضا قاتلا؟ أَيكون جرثوما سفاكا؟ يُقال إنه يهدد بشكل كبير أصحاب المناعة الضعيفة، يهدد الكبار في السن، وينقض على الصغار، تُرى مَنْ يكونُ هذا حتى يختار؟

في هذه الجمعة لم أميز بين صحافي وآخر، بدا لي الكل صحافيا، وظهرَ لي الكل مؤرخا للحظة كما كان يؤكد ألبير كامو. ما إن أمر بالقرب من شخص حتى يصل إلي سمعي أنه سوف تعلق الدراسة من يوم الإثنين، فأفرح بهذا الخبر، ويصّلني أن على المرء أن يكثر من غسل يديه، وأن يستعمل الكمادات، وأن يستعمل القفازات، وأن يستعمل المناديل، ويصّلني أن حالة توفيت في المغرب جراء هذا الفيروس، وأن حالات ترقد في الدوام، ويصّلني أن القادم أهول. هذا خليط مما كنتُ أسمعُه، وكانَ هذا الخليط في أغلبه عبارة عن أقوال ذائعة، وأغلبها لا صحة له.

مرت الجمعة، وآلاف الأسئلة عالقة في ذهني. جاء السبت، قصدت كالعادة ابن هشام، وهنا نخبّر أن الدراسة علقت، ولا يتعلق الأمر بعطلة استثنائية، إنما سنتابع دروسنا على القناة الثقافية، وبواسطة وسائل الاتصال المتاحة، ويخصّ المستجد أكثر أصحاب السنوات الإشهادية.

لم يسبق أن رأيتُ هذا، كورونا في المؤسسات، كورونا في التلفاز، كورونا في الشارع، كورونا في المنزل... ألمّ بي الرأس، وانتابني الهذيان، واستشعرتُ الخوف، خفتُ على أبي، وعلى جدي وجدتي، وعلى الناس أجمعين. ذهبْتُ مشاكساتي وذهبَ نشاطي، وأصبح قلبي معلقاً بالله. جرثوم صغير يهزم أمريكا وما والاها، كم هو مخيف كورونا هذا

من يوم الجمعة وأنا أرى إقبالا منقطع النظير على المواد الغذائية، وعلى الخضروات والفواكه، وعلى اللحوم والدواجن والأسماك، ماذا يجري حتى يُسال لعاب الناس؟

سمعتُ أبي يقول إن الحكومة تدعو عموم المواطنين إلى أن يلزموا منازلهم إلى أسبوعين حتى لا ينتشر الفيروس، وهو ما لم يفهمه عموم المواطنين. أغلقت الفضاءات المحتملة لكل تجمع، أغلقت المدارس والكلّيات والمعاهد، والمطاعم والمقاهي، والمساجد، وغيرها، وبقيت الدكاكين والأسواق، ودعي المواطن للخروج من المنزل للضرورة.

لم يسبق أن رأيتُ خصاما أمام دكان، وأمام مخبزة أو فرن... الكل ينادي نفسي نفسي كأنها القيامة، هل هذه صورة مصغرة عن القيامة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. ما أزعج نفسي هو الأنانية في صفوف كثير من الناس، ولم يسبق أن سمعتُ عن أحد أنفق خمسمائة ألف درهم، وآخر أنفق عشرة آلاف درهم، وآخر أنفق فوق ذلك، ما هذه الأنانية؟ ربما هذا اختبار حتى نتعاون، ويعرف بعضنا بعضا، ونتحد، هكذا علمتنا الحياة كما أكد أبي.

أمي على قدم وساق هي وأبي حتى يقتنيا كل ما يهيم البيت من حاجيات لأسبوعين، وربما يتمددان. ما أعجبنى في أبي وأمّي أنهما اشتريا ما ينفق فقط، ولم يكدسا المواد، وعلى شاكلة الأيام العادية اتجها، لا إفراط ولا تفريط، اكتفيا بما يلزم البيت، من لحم ودجاج، وقطان، وأرز، وخضر، وقليل من الفواكه، ومواد تنظيف.

على شاكلة بعض البلدان قام المغرب بعزل نفسه، وعلق خطوطه الجوية، وهنا سجلت الحكومة إنجازا غير مسبوق، لأنها أثبتت للمغاربة أنها تخدم المواطن ولا شيء غير المواطن.

ما أزعج أبي وأمّي أن كثيرا من المواطنين لم يستوعبوا الدرس ولا زالوا يقصدون التجمعات، يتجمعون في دكان، أو عند بقال، أو عند بائع خضر أو فواكه، وما زاد الطين بلة أن

المصلين لما وجدوا المسجد مغلقا، صلوا جماعة أمام بعض المساجد، كأن البلاغات الحكومية لا تعني شيئا، وكأن الحكومة بمؤسساتها ووزاراتها وكفاءاتها لا تفهم.

فرحت بهذه الوضعية قليلا، وبدأت أتذكر النعم، أتذكر ابن هشام والأصدقاء، وأفكر في الأقارب كم أصبحوا أباعد، وأفكر في ملعب الشعاع، وأفكر في المباريات، وأفكر في آدم وأسرته، وأفكر في أسماري. اليوم لا سبيل لي إلا الهاتف، أنظر منه إلى العالم وما يجري فيه.

لأول مرة وجدت نفسي أفكر، وأقصد المفيد. اقتنت أمي ما يفيدنا لأسبوعين مقبلين، ومكثت أبي في الشقة لا يبرحها إلا للضرورة القصوى، أخبر أمي أن علينا المكوث في المنزل، ويتكلف هو بإحضار شيء ضروري من الخارج. ولمساعدته في مهمته اشترى أبي كمامة ومعقما، يضع الكمامة لما يغادر الشقة لجلب شيء تراه الأسرة ضروريا، ويعقم يديه إن لمس سطح شيء، فلا ثقة في أسطح الأجسام.

بعض الأسر فكرت في نفسها، وجلبت ما ينفعها لشهرين أو أكثر، ونسيت أن تأخذ ما تحتاج إليه، وتترك للآخرين ما ينفعهم في هذه الأيام العصبية، والتي تعد أزمة عالمية بجميع المقاييس، والكل فيها أسلم وجهه للخالق سبحانه، وآمن بقدرته المعجزة، وبسلطانه العظيم. مَنْ كان يتوقع بعد هذا التقدم الهائل والثورة التكنولوجية والثورة الصناعية الرابعة أن ترضخ بلدان العالم أجمعها وأن تغلق الحدود البرية والبحرية والجوية؟ من كان يظن أن عذاب الله أت؟ من كان يكلم أمريكا؟ ومن كان يتربص أمام الإمبراطوريات العظمى؟ ومن كان يتكلم مع الاتحاد الأوروبي؟ ومن كان يتردد أمام الصين التي لا يخلو سوق من منتجاتها وغزت العالم بسلعها؟ مَنْ مِنَ العالمين لا يعرف الصين؟

الصين التي ظهر فيها الفيروس الخبيث، ظهر تحديدا في مدينة ووهان في شهر دجنبر من السنة الفارطة، وبدأ يحصد الغث والسمين، ويسقط الأرواح كأوراق الخريف. في أيامنا هته يؤكد الجميع أن الصين استطاعت بكفاءاتها وبالتكنولوجيا القضاء على الفيروس، استطاعت بمعونة الآلة أن تهزم كورونا. الروبوت فيها هو مَنْ يقوم بتطبيب المرضى، الروبوت فيها هو مَنْ يقوم بالمهمات العويصة، الروبوت فيها هو الطبيب، الروبوت فيها هو الممرض. العالم كله رفع القبعة للصين، وبدأ يطلب مشورتها، ويطلب أطباءها، إنها بلاد العمل والعمل، إنها الحضارة التي اجتهدت حتى تقضي على الوباء. يروى أن الصين اخترعت آلات تمكن مَنْ يضعها مِنْ تعرف المصاب من غير المصاب. كم أحترمك أيتها الصين، العالم أغلق المطاعم والمحاكم والفضاءات العامة، والصين في هذا اليوم تفتح مطاعمها. الصين هذه أبدعت تطبيقات تمكن المواطنين من التعرف على المصابين المحتملين، وعلى أماكن تواجدهم، وبالتالي الابتعاد

عن تلك الأماكن. وإن صدق ما يقال ربما يتجه العالم إلى عهد جديد تحكمه الصين بعدما حكمتها أمريكا، وهذه سنة كونية ، حاكم يأتي، وآخر يزول

العالم كله مجند من أجل غرض واحد، وهو إيجاد لقاح يقضي على الفيروس. ها هي ألمانيا تعلن أنها اخترعت دواء لعلاج الفيروس، وتقول للرئيس الأمريكي إنه ليس للمساومة، ولا للبيع، وها هي شركة فرنسية تعلن أن دواء لمعالجة المالاريا يحتمل أن يكون علاجاً لكورونا، وها هو المختبر الفلاني والمختبر الفلاني في ترقب، وها هي بلدان العالم الثالث ترقب متى يظهر اللقاح، كأنها خارج التاريخ، والذي يسجل أنها شعوب مستهلكة، تكتفي بالتغريد على الوسائط الاجتماعية، وها هم المضاربون فيها يرفعون الأثمنة رغم تنبيه الحكومات، وها هو الاحتكار يتقشى، وها هي الإنذارات المتكررة، وها هو الهرج والفساد

وصلت الحالات المرضية في المغرب إلى حدود الظهيرة من يوم الأربعاء 18 مارس م، إلى تسع وأربعين حالة، وفق مصادر رسمية، وكانت في حدود أربع وأربعين حالة 2020 يوم أمس. الأيام القادمة سوف تكون أصعب، وسوف تحمل الجديد، وقد يظهر عالم جديد بزعامة زعيم جديد، فلننتظر قادم الأيام

كان أبي كلما خرج من الشقة وعاد يخبرنا بكل جديد

لازال الإنسان اليوم في خبر كان، الكل يحذر إلا المغاربة لم يرهبهم شيء، لا بد أن تتدخل - السلطات لردع المخالفين، لا بد من سلطة عليا، وإلا سوف تكون الأضرار وخيمة

وهنا تتدخل أمي المنغمسة في المطبخ

ماذا تقصد؟ -

الحياة في الخارج عادية، المواطنون بهذا الفعل يعرضون حياتهم وحياة أسرهم وحياة غيرهم - للخطر، علينا أن نستفيد من البلدان التي انتشر فيها المرض، والتي لم تتخذ الاحتياطات اللازمة إلى أن قطع كورونا أشواطاً كبيرة يطوف في الشوارع والأزقة والدروب والبيوت والمحاكم

أفهم من كلامك أن الإنسان رغم ما يجري لا زال لم يفهم معنى كورونا، وأنه طائش كما يؤكد - الأطباء والخبراء في مجال الصحة

تبدو لي أمي عارفة ما يجري، وهي التي لم تشاهد نشرة أخبار من قبل، ويبدو والدي فوق العادة مهتما بالأخبار، ومنقبا فيها عن الصواب، وأبدو مهتما بما يجري من حولي. كأن فقداني

للعب كرة القدم بالشعاع، وفقداني مباريات الدوريات العالمية جعلني أهتم بفيروس كورونا وانشغال العالم به.

في هذه المحنة العالمية لم ينفع الفن ولا الفنانون، ولم ينفع الغناء ولا المغنون، ولم ينفع الطرب ولا المطربون، ولم تنفع الكرة ولا اللاعبين، ولم تنفع الملهاة ولا اللاهون... ما نفع هو الطب والأطباء، والصيدلة النزيهة والصيدليون، والعلم والباحثون، والاختراع والمخترعون، والاكتشاف والمكتشفون.

لا همّ لأبي في هذه الأيام إلا أن يشاهد أخبار القناة الأولى أو القناة الثانية، أو أخبار الجزيرة أو العربية أو الحدث. يتابع اليوم كله دون ملل، وربما أحس بانزعاج أخويّ ومنحهما جهاز التحكم عن بعد ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى أخباره، والتي كانت أخبارا في الغالب تبدأ بخبر في الصباح يستمر إلى المساء، ليتجدد في يوم الغد خبر آخر، وتستمر الأمور هكذا في اليوم الذي بعده.

في هذه الأيام العصبية خرجت متسللا من الشقة، وذهبت في اتجاه شقة أسرة آدم، طرقت الباب، وخرج أبو آدم، سلمت عليه تاركا مسافة أمان أوصتني بها أمي عند الخروج الاضطراري رغم أنني لست من زمرة، وأمي بدورها تلقّت هذا عن أبي. رد الرجل في لطف ولباقة، وفهم ما أرمي إليه، فهو رجل ثقافة وفكر، أتفوته مثل هذه المعلومات وهو الذي عاشر الكتب والمجلات والجرائد والأخبار؟ رحب بي، دخلت قاصدا الصالون، وجدت آدم ممددا على سرير، سلمت عليه من مسافة مترين، وجلست. من الظاهر أن زيارتي أفرحت آدم، وربما كان هو الآخر بحاجة لرؤيتي حتى أذكره بالبطولات والأمجاد والأيام الخوالي. سألتني الأب عن الأسرة كلها، وما كان صوتي يصل إلى أم آدم حتى وجدتها أمامي، سلمت، وسألت عن الأسرة، وحذرتني من الجولان، لأنها تعلم أنني لا أطيق العيش بين أربعة جدران، وفي هذا رسالة لآدم أيضا، كما نصحتني بلزوم البيت، وتنظيف اليدين باستمرار بالصابون أو المعقم، ونصحتني بالعطاس في المرفق الأيسر حتى لا يصل الرذاذ إلى الآخر، وفي ذلك سلامتي وسلامة الغير. وهنا يتدخل المثقف

وتبقى أحسن وسيلة لمواجهة الفيروس المُكوث في المنزل، السلطات العمومية جابت أركان - الأحياء تنصح الناس بالتنظيف، والبقاء في المنزل إلا عند الضرورة القصوى

فهمت المغزى، لكن أب آدم لا يعني أن زيارتي لا تسر، بل فقط يرشدني للصواب لصغر سني، وبحثي عن فضاء لتمضية الوقت

هذه فرصة حتى أسأل الأب عن بعض الأسئلة العالقة بالذهن

وماذا تعني الضرورة القصوى؟ -

تكون الضرورة القصوى عملاً أو تطبيقاً أو تسوقاً وشراءً لما يلزم من المشتريات اليومية التي - يحتاجها البيت. هناك مصحات قامت بالواجب، وأصبحت في ظل الظروف الراهنة تتواصل مع مرضاها - خاصة أصحاب الأمراض المزمنة- عن طريق الاتصال الهاتفي أو عن طريق التطبيقات الاجتماعية.

ما هي الجائحة العالمية؟ -

بحثتُ عن الكلمة في المنجد في اللغة العربية المعاصرة الذي أعده لويس معلوف اليسوعي، - وجدتُ جمعها جوائح، وهي المصيبة تحل بالرجل في ماله، وهي الكارثة، وهي الوباء. ومن هنا نصل إلى سرعة انتشار الوباء، كما وقع في أيامنا حين جاب الفيروس البحر، ودخل مناطق حيوية ونائية، وهدد الجميع بالهلاك المحقق.

الآن فهمت، الجائحة العالمية هي المصيبة العالمية. إلى متى سوف نبقى في المنازل؟ -

إلى أن نتغلب على الفيروس، في أيام أو أسابيع أو أشهر، من يدري إلى متى؟ -

هل سبق أن جاء مثل هذا الوباء من قبل؟ -

سبق أن جاء مثل هذا الوباء في الأزمنة القريبة والبعيدة. في عهد الخليفة عمر، في بلاد الشام - حلّ الوباء، وحلّ الطاعون، واتخذت إجراءات احترازية، ومن الأمور التي جاء بها الداهية عمرو بن العاص -الذي كان والياً على الشام- هي تجنب التجمعات. ومن الأمور التي نودي بها "في ذلك الزمان: "ادخلوا مساكنكم

متى كان ذلك؟ -

كان ذلك سنة 18هـ، 640م -

تدخل آدم سائلاً:

هل وقعت وفيات في صفوف المسلمين؟ -

توفي خلق كثير، ووصل العدد إلى خمسة وعشرين ألفاً من الذين ماتوا -

وهل تمّ القضاء على الطاعون؟ -



تمّ القضاء على الطاعون بتوجيهات عمّر ومستشاريه -

أحسن طريقة في هذه الفترة هي ادخلوا مساكنكم -

لا فض فوك يا ولدي -

فهمتُ من كلام الرجل أن علي البقاء في المنزل، خاصة أن رقم المصابين -في المغرب- بدأ يرتفع، ووصل إلى حدود صبيحة الخميس 19 مارس 2020م إحدى وستين إصابة، ومات اثنان من كبار السن لضعف مناعتهما، وتعافتُ حالتان. علي المكوث في المنزل رغما عن أنفي

ودعتُ أسرة آدم، ونزلتُ، وصعدتُ عمارتنا. وجدتُ أمي في كامل عصبيتها، ما إن فتحتِ الباب حتى بدأ سيل التوبيخ، والذي لا يفيد معي كما تؤكد لي أمي، لكن لا أعلم ما الذي يجعلها تصبر، وما إن تنسى فعلتي حتى أجدد فعلة أخرى. بدأتُ توبخ وتنظر إلى أبي، وكأنها تدعوه إلى الكلام معي ومشاركتها توبيخي، لكن أبي لزم الصمت، هو يتحدث صامتا، ويقول في صمته إنه ليس راضيا على سلوكاتي في الأيام العادية، فما بالي بهذه الأيام التي أذهلت العالم كله. وفي المقابل يضاحك أخوي ويلاعبهما، ويجد في ذلك متعة وتسلية، تنسيه ما يفعله الابن الأكبر. إذا أمعنت النظر في أبي رأيت الحزن، ولا أدري ماذا يكتم خلف تلك النظرات، لعله يرجو أن أعود إلى رشدي ذات يوم، هذا ما يبدو لي من طلعه

كثيرا ما كلمتُ أخي وأختي عن مستقبلي الكروي، وعن امتهاني كرة القدم رفقة ناد من أندية العصابة الاحترافية، يشاركاني أحلامي، ويكون لأمي وجه آخر في الموضوع، هي واقعية زادت تجارب رفقة أسرتها وتعلمتُ على يد الحياة في ظرفية وجيزة من السنوات. بدأتُ عقدها الثاني رفقة أبي، فاضتُ جنكة وتجربة، تسدي للمبتدئات في الزواج نصائح كثيرة، كثيرا ما رأيتُ منها هذا. هي ترى أنني أحلم، والحلمُ سراب، والسراب غير الحقيقة، إذ هو زائل لا محالة. وكان رد فعل أبي عندما يسمع بنات أحلامي، وجماعة أوهامي، أن ينتفض ويظهر عليه الغضب الشديد، ويقوم بإشارات وإيماءات تتكلم بدلا عنه

إن أبي كما كانت توضح أمي لي لا يعارض ممارستي كرة القدم، هو يعارض تعويلي عليها، وسعيي الشديد نحوها، هو يريدني أن أمارس هواياتي المفضلة، وأن أجتهد في دروسي، وهو يريد فوق هذا أن أبتعد عن الهاتف المحمول ما أمكن، وأن أستعمله، لكن بتقنين، وأن أحكمه حتى لا يحكمني، وأن أتصرف فيه، لا أن يتصرف في، ويقيدني

أنهتُ أمي سيلَ الكلمات، واتجهتُ إلى المطبخ. المطبخ لا يعني أنها لا تتابع ما يجري، هي تتابع ما يجري عن طريق أبي، كان كلما جد أو استجد جديد يخبرها به

بعد اشتداد الحال، وتزايد الإصابات في صفوف المواطنين تعلنُ السلطات المغربية حالة -  
الطوارئ الصحية، والتي يبدأ العمل بها على الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة 20 مارس

ماذا تعني؟ -

أعني أن يتكلف واحد عن كل أسرة بالمهام خارج المنزل، وتمنح له شهادة تنقل استثنائية -  
موقعة من عَوْن السلطة، يدلي بها المرء عندما يطلب منه ذلك

إلى متى سيستمر ذلك؟ -

إلى أجل غير مسمى كما تؤكد السلطات -

علينا احترام ما تقررهُ السلطات الوصية -

معك حق. وعلينا الابتعاد عن الشائعات -

كأن أبي يلمح لي، ويريد أن يوصل رسالة، لأنني مَنْ ينشر الشائعات بين أهل البيت، ولا  
أقصد ذلك، إنما هو الفضاء الأزرق وإخوته، هم الذين يمدونني بالشائعات، وأبادر إلى تصديقها  
دون تمييز بين الحقيقي منها والزائف. المواقع الإلكترونية تغريني بحلوياتها، مما يجعلني أضع  
البيض الصالح والفاسد في سلة واحدة. إني في سن لم أتعلم فيه مبادئ النقد بعد، ولا مبادئ  
الحجاج، تعلمتُ فقط ما يهدم المعارف، ولا أفقه ما يشيد بنيانها

-6-

ادخلوا مساكنكم هي العبارة المتداولة في هذا الوقت، طبقها الأفراد تطبيقاً يتمشى مع ما  
أقرته سلطات البلاد من احترازاات. لزم المواطنون جانب الحذر إلا بعضاً من الساخرين،  
والذين لا همّ لهم إلا التهكم من الوضع، وتوزيع الضحكات اللاهية عن ذكر الحق. يرى بعض  
الضخام أن الدولة بكفاءاتها، بالكبير والصغير تخاطب المسرح، وأنها تغرد بعيداً عن السرب،  
لا يرون أن الحكومة تدق ناقوس الخطر، ولا يرون أن إيطاليا بالأمس جاءها الوباء ولم تعرهُ  
اهتماماً، وكانت النتيجة مئات الآلاف من المصابين بالوباء، ومئات الموتى، وعشرات  
الأزمات، أما بلاد الصين فقد ولى عنها الوباء بعدما عذب شعبها وأذاقه العلقم، واليوم عاد  
الشعب العامل إلى حياته الطبيعية بالجد والحزم لا بالسخرية والتهكم

ما بال بعض الأفراد لا يستوعبون الدروس وهي أمام أعينهم؟ ما بال أقوام يفتحون أعينهم  
نياماً؟ ما لهؤلاء القوم لا يفقهون حديثاً؟ ألا يرون أن إيطاليا كانت تضحك واستمرت في ولائها

لحياتها الطبيعية بينما الفيروس يحوم في ديارها؟ ما لهؤلاء الساخرين لا يفهمون أن الصين شمّرت عن سواعد الجد؟

ظروف راهنة غيرت برامج الأفراد، وأسكنت الناس إلى ديارها، رأى الأب ابنه عن قرب، ورأى الابن والده عن قرب، وتعرفت الزوجة على زوجها، وجلس الكل إلى الكل، وتجاوز الكل، هل كنا بحاجة لهذه الأيام؟

غيرت الأيام التي نحيها طبايعنا ونظراتنا إلى الأشياء، وغيّرت سلوكياتنا، كما غيرت أسلوب تفكيرنا، ونظرتنا إلى الوجود، ربما تكون نقمة في طيّها نَعَم. هل كان لأب أن يجالس أسرته ويتعرف همومها ومشاكلها؟ تغيرت سبل العيش، ونظرتنا إلى الحياة، والتي كنا نراها في التسوق، وشراء الملابس وارتداء الفاخر، وفي السياحة وزيارة البلدان، وفي المأكّل والشواء واللذيق، وفي الفسحة والتفاخر بكل جديد، وفي الرفاهية وابتياح العديد

كانت أمي تقوم بكل ما يلزم داخل البيت، لم يتغير من حزمها شيء، ما تغير هو مكوّنها في المنزل، وعدم خروج لشراء الحاجيات أو الذهاب إلى المدرسة أو أخذ أخويّ في فسحة نهاية الأسبوع للحديقة العمومية لطريق أزمور، يلعبان ساعة أو ما يزيد عليها ويعودان أدراجهما إلى البيت. ادخلوا مساكنكم جعلت والداي بعيدين عن أقرب الأقارب، وكان الاتصال والتواصل بالتطبيقات الجديدة الوسيلة لتقريب كل بعيد، والسؤال عن كل حبيب

كان هناك شبه اتفاق أن محمول أمي هو محمولي، لكن في ظل الأزمة بدأ المحمول يذهب إلى صاحبتة مرة مرة، وكنت على نار، لأن المحمول هو من ينسيني الوقت، أنا لا أعرف مذاكرة ولا دروسا مثل أخي وأختي، كل وقتي أمضيه في الفارغ، وإن بدوت هذي الأسابيع مهتما بالفكر وتحليل الأمور، والاهتمام بما تعرفه الساحة الوطنية ونظيرتها العالمية

أمي تسأل عن أقاربها -في الغالب- بواسطة الواتس أب، لأنه غير مكلف من الناحية المالية. أمي تسأل عن أمها وأبيها وإخوتها وأبناء الإخوة، وكانت تطيل الحديث وهذا ما كان يشعرني بالحنق

ألو، أمي، كيف الحال؟ -

بخير والله المنة والحمد؟ كيف حالك أنت وحال زوجك؟ -

بخير. كيف حال الإخوة وأبنائهم؟ -

أمور الكل على ما يُرام. كيف حال المشاكس وحال أخويه -

المشاكس لا يزال في ضلال مبين، متى يكبر ونرتاح من سلوكاته التي تقلق أهل الدار؟ يبدو - أن أخويه في أفضل حال، يراجعان، يلعبان، يجتمعان إلي، أو إلى أبيهما، وفوق هذا لا أعاني معهما المشاق كما أعاني مع أخيهما، يمسك المحمول صباح مساء، وليل نهار، لا يمل منه، يمل المحمول ولا يمل صاحبه.

أسمع جدتي تضحك، لأنني كنت بالقرب من أمي أنتظر الوقت الذي تفرغ فيه حتى أستمر في التصفح.

أضحكتك أمي؟ -

أضحكت سني. قلت لك أرسله يعيش معنا؟ -

أعرف أمه أنك تحبينه ويحبه أبي، لكن لا أقدر على فراقه، وأبوه لن يقبل -

إذن دعيه مع الأيام سوف يكبر -

أرجو ذلك. نسيئاً أن أسألك عن أبي وصحته -

لله الحمد، أبوك في تدهور مستمر، وأنا معه من التابعين، كبرنا يا ابنتي، أول العمر ضعف -  
وأخره ضعف.

لازلت شابة وردية الخدين، ولا يزال أبي شاباً، هذه حكمة من يتزوج صغير السن -

سمعت جدتي وردية الخدين، فارتفع صوت ضحكها ثانية. كانت أمي تلاطف جدتي وجدتي بهذه الكلمات، وتكيل لي أسوأ ما سمعت أذناي في الحياة، ليبتها كانت تفعل معي الشيء نفسه، ليبتها تداعبني بالكلام الرقيق الذي يدغدغ المشاعر.

استمرت المحادثة ساعة أو ما يزيد، واستمر غضبي ساعة أو ما يزيد. ارتحت بعد أن وقع المحمول بين يدي، آنذاك بدأت الراحة، وواصلت التصفح، ولم أنتبه إلى الوقت حتى ناداني أخي الصغير لتناول الغذاء.

هي من المرات التي نجتمع فيها على طاولة الغذاء جميعاً، لم يتغير شيء، ولم يتأثر غذاؤنا مثلما تأثرت نفسياتنا جراء انتشار الوباء. كان الجميع حاضراً، أبي وأخي وأختي وأنا آخر الملتحقين، وأمي ما تزال تنزل على الخوان. تكون الغذاء من سمك متنوع مقلي، شاي منعنع، وكم كان فرحي كبيراً لما رأيت السلطة - التي أحبها - تتوسط المائدة، وهي تتكون من خس

مفروش، و طماطم وقثاء، وبطاطس مسلوقة، وبيض، وجزر مفروم، وأرز، وخيار، وجبن أصفر ذرته الأم فوق الطبق حتى بدا يستحق صورة تخلد يومه المشهود

أمي لم يخف عليها أن لعابي سالَ عندما رأيتُ ما سرّني، وبدأتُ تبسمُ معلنة للجميع أنها فطنتُ أمري، وعرفتُ ما أبهجتني، إنها السلطة التي تذهلُ، والتي أطلبُ أمي دائما أن تحضرها لنا، فيزداد طربها. يسرّها أن أمدحَ طعامها، ولم أكنُ أفعلُ ذلك غاية إفراح الأم، إنما كنتُ أفعلُ ذلك معبرا عن انشراحي. الحمد لله الذي رزقني مثل هذه الأم التي تجيدُ شؤون البيت

أنا أتأملُ، وأشكرُ أمي في داخلي، وأمي لا تزالُ تبيّنُ ابتسامتها الحلوّة، وما إن تظن الجميع لأمرها وأمري أعلنتُ:

انتبه إلى لعابك -

بقيتُ صامتا أخذ من هنا وأقصدُ الصحن هنالك، وقد شهدَ صحنُ السلطة أكبر هجوم يتلقاه فوق الخوان

تمهلُ سوف تؤذي نفسك بهذه السرعة -

قلتها بعد هنيهة، قد سالَ لعابي، وكيف لا أفعلُ، والله رزقني أفضل أم، وما أشعر -

تمهلُ، هناك الطعام الكافي، التزم بأدب الأكل -

أول مرة أسمع بهذا، لم أسمع عن أدب أكل من قبل -

كأنني بكلامي أستدعي أخي وأختي للفصل بيني وبين أمي في هذه القضية الجديدة عني

هناك ما يسمى بأدب الأكل -

كل هذا أتى مع رسول الله الذي لم يغفلُ شيئا ينفعا في الحياة، والعلم زكى هذا -

أول أمر سمّ الله، وكلّ بيمينك، وكلّ مما يليك -

أضف إلى هذا أن السرعة سوف تؤذي جهازك الهضمي -

بالسرعة هذه لن تمضغَ الطعام جيدا، وسينزل -تقريبا- كما كان في صحنه، ويصعبُ عملية الهضم على المعدة

قد يكونُ هذا سبب ألمك الدائم على مستوى البطن -

الأستاذان الصغيران يشرحان، والأبوان مسروران بهما، ويتابعان في إنصات وتركيز عاليتين. زاد إفراطي في السرعة، وهنا تتدخل أمي

أقذف ما يسد جوعك بسرعة، وقم إلى تصفحك -

أنا لا أسرع من أجل المحمول، ربما عادة الإسراع جعلتني أسرع -

أنا لا أعرفك؟ بالله عليك لا تجادل، قد اعتدنا منك هذا -

تابع أبي هذه الحوارات في سكينة وتبرّم، كان ينتظر قيامي حتى يحاورُ أسرته، وسوف يبقى غاضبا من سلوكي إلى أن أستقيم، وليست هناك بوادر استقامة تلوح في الأفق، كلما كبرتُ ازددت طيشا

أنهيتُ وجبتي في وقت وجيز، وقصدتُ الصالون أحملُ الهاتف، وما كدثُ أصلُ إلى وسط الصالون حتى سمعتُ قهقهة أخويّ. هما لا يباليان، يتابعان دروسهما عبر قناة الرابعة، وقد يجتهدان في دروسهما فيفهمان، لأنهما يساعدان بعضهما بعضا. لم تكنُ شقنا مزودة بشبكة إنترنت، مما جعل المجدين لا يلجان المواقع التعليمية مثل تلميذ تيس، وغيرها من المواقع التي نصحتُ بها الوزارة. ولم يكن الأخوان ليتأثرا بعدم وجود الأنترنت، يكفيهما الكتاب المدرسي، وما درساه في القسم. وكان من عجيب الأخوين أن تراهما يتابعان دروسا على قناة الثقافية تكبرُ عمرهما، ويبديان فهما يؤكداه حوارهما حول قضية أو حول طريقة أستاذ أو شرح أستاذة على القناة.

ما إن بدأتُ لمس شاشة المحمول حتى سمعتُ أبي يسأل عن جدتي وجدتي وكل أقارب أمي واحدا واحدا، وكان الأخوان لحظتها يفهمان ما يجري، ويحترمان أباهما، وما إن يتكلم حتى ينصتا في احترام- له

بعد حوالي ربع ساعة على قيامي سمعتُ الصحون والكؤوس تسلم على بعضها، وأدركتُ أن الجماعة أكملت الغداء. عاد أبي إلى أخباره، واتجه أخي إلى حضن كتاب صغير بدأ قراءته، وبقيتُ أختي تساعد أمي ريثما تنهي عملها وتلتحق بأخيها وصديقها المفضل

أنهت الأخت المساعدة والتحقّت بصديقها كما خمنّت، ووجدت الكتاب بين يديه مفتوحا على مصراعيه، وأمرته أن يقرأ بصوت مسموع، وما كان منه إلا أن استجاب لطلبها: "في حياتي دوما ألتصق بأمي، أأزعمها في كثير من المناسبات، حتى أنه يندر أن أفارقها إلا للضرورة القصوى، فانتسجت بيننا علاقة قوية من الصعب التأثير فيها، كنا معا أقرب إلى الصديقتين،

نتحدث مع بعض بشكل حميمي في كل الخصوصيات، والحقيقة أن الخصوصيات كانت نادرة جدا، فأنا ما زلت أعيش في كنف الطفولة حتى وإن كانت متأخرة، لم أملك بعد أسراري الخاصة، لذا كان عالمي محدودا ومكشوبا وطفوليا إلى أبعد الحدود.. هذا العالم المحدود كان والدي يعشقه، فقد أتاح له الاحتفاظ بابنته وحيدته أكبر وقت ممكن، لذا كان كثيرا ما يقترح عليّ مرافقته في رحلاته التي لا تنتهي، لقد كان مهووسا بالطبيعة والتجول فيها والاستمتاع بها، كان يمارس صيد السمك في النهر الذي يخترق الغابة، ويعجبه كذلك التمدد في الخلاء ليقضي وقتا طويلا هناك دون أن يخترقه الإحساس بالملل.. كنت أحب مرافقته، لكنني لا أملك نفس الشغف الذي يهيمن عليه. في رحلاته تلك، كان يحمل معه أنواعا من الأطعمة، ويستمتع بها أيما "استمتاع".

ما إن أطل أخي ببصره على الصفحة السابعة والسبعين، وكاد ينهي السطر الأول منها حتى بادرت أختي

ما اسم هذا الكتاب؟ ومن صاحبه؟ -

إن الكتاب رواية كتبها مصطفى لغثيري، وعنوانها أحلام المسيسي على ضفاف سبو -

من الفتاة التي كانت تتكلم لما كنت تقرأ؟ -

إنها جانيت، وهي فتاة شقراء تدرس في الجامعة، وتتابع دروسها فيها دون حماس كبير كما - أكدت في بداية هذا الفصل الروائي. وهي تحب الاكتشاف والمعرفة، وتجد متعة كبيرة في التعرف على الجديد، وكانت على علاقة وطيدة بأبها وأبيها

ما عنوان الفصل الروائي؟ -

الإفريقية الشقراء، وربما يقصدُ به السارد جانيت، لأنها تعرفت حديثا أنها ذات أصول - مغربية، وأن جدتها تنحدر من القنيطرة، وهناك التقت الجندي كلارك، وبدأ يخططان لزواجهما، والذي سيكلل بالنجاح في ديار المهجر

إن جانيت صاحبة أصول مغربية -

هو كذلك. كيف تعرفت هذا؟ -

تعرفت هذا - حديثا - عن طريق أمها -

كيف تمكنت الأم من إقناع جانيت بأصولها المغربية -

بواسطة رسائل تعود لجدها المغربية وجدها الأمريكي، وكانت الأم من قدمت لها هذه الرسائل.

ما إن بدأت أختي فهم المتن الحكائي للرواية حتى واصل أخي

تتكلم الرواية عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر من عام 2001م، يوم تعرض برج التجارة العالمي لهجوم بالطائرات أودى بحياة كثير من المدنيين، وهي تخلق الحوار الدائم بين الشرق والغرب، وبين المسلمين واليهود. هي رواية متداخلة لم أفهم فيها حدثاً في أول الأمر، لكن بوصولي إلى ما يقارب منتصف القراءة أدركت الأحداث، وبدأت تنتظم في ذهني- الوقائع

تحدث لي أكثر عن الشابة جانبيت -

هي شابة تبلغ العشرين ربيعاً، تسكن في شارع فرانكلين -مانهاتن- نيويورك، قرأت بعد الفاجعة التي نزلت على بلدها- دعوة للتطوع وبادرت إلى الاستجابة، وقصدت مكتب التسجيل، والذي أشار إليها بعد التسجيل وارتداء قميص كتب عليه شعار الحملة التطوعية للتضامن مع ضحايا الكارثة- أن توزع قنينات ماء على المصابين وعائلاتهم المتجمهرة في المكان، وهو ما فعلته كحلة تنتقل في همة ونشاط. وقد بدأت جانبيت في هذه الفترة تعي ما يقع حولها من تغيرات، وبدأت تراقب عن كثب ما يجري. وقد انخرطت بعد في عدة تداريب تلقت من خلالها دروساً سريعة في الإسعافات الأولية، ودروساً نظرية متعلقة بالكوارث وأسبابها ونتائجها. وسرعان ما سوف تتعرف الشابة على شاب أسود ذي أصول إفريقية، وكان يسمى بأحمد، وانضم هو الآخر إلى صفوف المتطوعين، وكان في كل مرة مضطراً -أمام إسرا- أن يدافع عن العرب بالحجج. وكانت إسرا شابة يهودية، تستغل جميع حوارات المتطوعين داخل مبنى التداريب، وتتعت العرب بأقبح النعوت، وتقذح فيهم، وتنزلهم منازل السافلين، لكن أحمد كان لها -في كل تدخل- بالمرصاد

وماذا بعد؟ -

هذا ما وصلت إليه من أحداث، والبقية تأتي -

من أعطاك الرواية؟ -

أستاذي، أعطاني إياها أقرأها ثم أعيدها إليه -

وهل يعرف أستاذك الروائي -



- بالتأكيد نعم، مصطفى لغثيري - كما أخبرني الأستاذ- من ساكنة الحي الحسني، وأصدر -  
عشرات الروايات والمجموعات القصصية  
شوقتني، سوف أقرأها عندما تنهي قراءتها بسرعة وأعيدها إليك كي تعيدها -بدورك- إلى -  
أستاذك  
إن شاء الله أيتها الغالية -

تابعْتُ كل ما جرى بين أخويّ من حوار، وزدْتُ احتراما لهما، وزدْتُ احتقارا لِنفسي.  
تابعْتُهما وأنا ممعُنُ النظر إلى المحمول حتى لا أربك حوارهما، وكَمْ بدا كل منهما أكبر منْ  
سنه، وحتى مَنْ يكْبُرُهما لا يستطيعُ مجارة هذا الفكر العالي، إنهما مثقفان بالطبع لا التكلف،  
يناقشان أمور المثقفين والمفكرين في زمن يشتكى أفول المثقفين والمفكرين. تجاوزا كل درس  
وسارا على نهج الكبار، وهذا شيء جديد يضاف إلى حزمهما، ومن الأكيذ سوف يزيد أبي  
وأمي فرحا وسرورا

بما أن المطبخ والمرحاض كانا على مقربة من الصالون سمعتُ أمي حوار الكبيرين،  
وكانتُ كلما خرجتُ من المطبخ أو من المرحاض تنظرُ إليّ، وتكلمني بغمز العين، وكأنها تقولُ  
لي لو كنتَ مثلهما، وتحاولُ في اللحظة نفسها ألا تعكّر على الأخوين، وأنْ تتركهما في تركيز

أكد ياسر لأمه أنه لم يعد صغيرا، وأنه أصبح ربان معرفة، وسوف يسير على درب  
المثقفين، وأكدتُ بثبينة لأمها أنها تسير وياسرا على الخطى نفسها، بينما أبي كان في غرفة  
محادية يشاهدُ الأخبار، ولم يفتنْ إلى حوار ياسر وبثبينة، لكن سوف يعرفُ عنهما كل شيء،  
لأن أمي سوف تخبره، لا من أجل الإخبار، بل من أجل أن تدخل السرور على قلبه

-7-

استمرتُ حياتنا كما هي عليه، وبدأنا نعتاد حياتنا الجديدة في الشقة، وكنا محصورين فيها  
طول اليوم، وتكلف أبي بما هو خارج الشقة، من مُشترّيات وحاجيات، وكان مضطرا أن يحملَ  
معه شهادة التنقل الاستثنائية التي منحها له عونُ السلطة، وبأمر من وزارة الداخلية، والتي  
أعلنتُ سابقا حالة طوارئ، كان من نتائجها الحجر الصحي، ولزوم البيت، وإغلاق المحلات  
التجارية على الساعة السادسة مساء، وغيرها من الأمور التي نفعت المغاربة كثيرا في  
محاصرة فيروس كورونا، وذاك بشهادة إعلامية عالمية

في هذه الوقت كان جلاله الملك محمد السادس قد أعطى أوامره بإنشاء صندوق تدبير جائحة فيروس كورونا، وساهم ملك البلاد مساهمة كبيرة فيه، وساهم فيه أيضا الوزراء والنواب والإعلاميون، والجامعات الرياضية وغير الرياضية، والاتحادات، والمؤسسات العمومية للدولة، والشركات الخصوصية، والجماعات الترابية، والمجالس البلدية، والأفراد. وخصص لهذه العملية حساب بنكي تابع لبنك المغرب، ساهم المغاربة فيه مساهمة كبيرة منذ اليوم الأول على إحداثه. كان الصندوق موجه لدعم القطاع الصحي، وموجه لدعم القطاع الاجتماعي، واستنشر به المواطنون خيرا

بدأت أسمع عن أسر تعاني في صمت، الجائحة لم تترك لها قوتا داخل البيت، لكن المغاربة وقفوا وقفة رجل واحد ساعدوا بعضهم، وتآزرُوا بغية مواجهة عين العاصفة. وهناك أسر كانت تجر الخيبة، ولا تكاد تجد ما تأكله، وهناك نحيب وبكاء، واستعطاف في صفوف أصحاب الدخل المحدود، والذين لا يملكون إلا عمل سواعدهم، كانوا قبل الجائحة يدبرون قوت اليوم، ويدبرون أمر الكراء، وبعد الجائحة ذهب شبه العمل، وحلت الحاجة، وانقطعت -على الفقراء- السبل

فرح الناس لما سمعوا من قنوات رسمية عن تعويض للمواطنين يتدبره الصندوق المخصص لتدبير الجائحة، وتتكلف وزارة الاقتصاد والمالية وإصلاح الإدارة بهذا الأمر مع باقي الشركاء، حيث يقومون بتكوين لجنة اليقظة الاقتصادية

توعدت السلطات المخالفين بعقوبات شملت لحد الساعة -منذ تفشي الوباء- ستة وخمسين مغربيا ينشرون أمورا لا أساس لها من الصحة، وييثون الهلع في صفوف المواطنين، ويكفي المواطنون ما هم فيه من رعب شديد أدى بالبعض إلى مضاعفات نفسية. وقد تشمل هذه العقوبات من يتلاعب بأموال الصندوق فردا أو جماعة

رغم تحذيرات السلطات، وتوجيهات الأطباء النفسانيين بقي بعض من يهوى الفكاهة المَهْلَكة يرقد في بحر السخرية. وكان من الذين قادتهم النيابة العامة شابتان تنحدران من مدينة طنجة، كانتا تطلبان اليقظة الوبائية للسخرية والاستهزاء ونشر الحالات الكاذبة، مما أدخل النيابة العامة على الخط. هذا ما قرأتُ وأنا أتصفحُ، والله أعلم، هل هي أخبار حقيقية أم زائفة؟ وإن كانت حقيقة، فهذا يجعل المرء حيران، البلدُ والعالمُ برمته يعيش على وقع الترقب والتوجس والخوف، وموظفو القطاع العام والخاص والعسكري تلاحموا في هذه اللحظة التاريخية التي سوف تشهد لنا أو تشهد علينا، وبعض الناس لا يهمهم سوى الضحك المؤذي

إن كان ما قرأته صحيحا، فهذا ينذرُ بزوال أمة، الناس في عمل، وفي مخاطرة من أجل المواطن، ومن أجل أن يعود إلى حياته الطبيعية، ومن أجل أن يعود إلى الشارع والمقهى

والمطعم، ويتجه إلى مزاولة الرياضة، ويتجه إلى المسجد، وينعم بالسفر، ويعود إلى الجامعة والمعهد والمدرسة، والآخر الساخر يمضي وقته في التافه، ونشر الأباطيل، أي جزاء نجازي به الأطباء والممرضين، ونجازي به رجال الأمن والدرك والقوات المساعدة وأعوان السلطة، ونجازي به الأساتذة الذين يجتهدون في تعليم عن بعد، وينفقون من جيبهم على صبيب الأنترنت، وعلى الهاتف الذكي، وعلى اللوحة الذكية، وفي الأخير يجازيهم صاحب حساب وهمي بسبّ وشتم وقدح، وكثيرا ما وقع هذا في هذه الأيام الحرجة، ما ترك بعض الإدارات التربوية تغض الطرف عن هؤلاء الأفراد، وتتعامل بمقولة: "يكفي البلاد ما هي فيه".

كلت جلسات لجنة اليقظة الاقتصادية ببعض الحلول التي ينفذها صندوق تدبير جائحة كورونا، ومن بين الحلول نظر إلى القطاع المهيكّل أولا، حيث قرر منح المُستخدّمين المُصرح بهم في صندوق الضمان الاجتماعي والذين فرّضت عليهم ظروف الوفاء الانقطاع عن العمل المؤقت، تعويضا عن ثلاثة أشهر، وهي مارس وأبريل وماي. ولم تنس اللجنة القطاع غير المهيكّل، وقررت تعويضا من خلال مرحلتين، تعويض الفئة الحاملة لبطاقة المساعدة الطبية في مرحلة أولى، وتليها بالتعويضات نفسها الفئة غير الحاملة لبطاقة المساعدة الطبية. ورغم أن تعويض الفئة التي تشتغل بالقطاع المهيكّل كان ضعف الفئة التي توجد في القطاع غير المهيكّل بحوالي ثلاث مرات، إلا أن الأهالي استبشروا بهذا العرض الذي لم يكن في حساب المواطنين، وعبروا عن سعادتهم، لاسيما أن بعض المواطنين بدؤوا يواجهون ظرفا اقتصاديا واجتماعيا صعبا جدا، ومنهم من بكى والشاشات مصوبة نحوه، ومنهم من عانى في صمت.

الظرفية صنعت لنا مواطنا آخر، هيأت مواطنا متسامحا، ولا يبحث إلا عن قوت يومه، ولا يهمله المال ولا العمل، المهم هو البقاء على قيد الحياة. وقف المواطنون وقفة سرب واحد، كانوا يقدمون مساعدات مالية لبعضهم، أو مساعدات غذائية، وقدموا يد العون في كل ناد.

كان أبي وأمي يحدثان بعضهما خفية عن ميزانية المنزل، والتي من الواضح أنها بدأت تتأثر، وهذا ينبئ أن قادم الأسرة أصعب. كانا يجتهدان قدر الإمكان كي لا نفطن لاقتصاد المنزل، ويتمنيان أن تبقى الظروف الاقتصادية للأسرة طبيعية. كنت بحسي المشاكس أعرف ما يدور بين الزوجين خفية، وربما ياسر وبثينة يعلمان هذا أيضا، فلا يمكن أن يخفى على ذكيين أمر كهذا، وقد انعدمت طلباتهما فجأة، وهذا يعني شيئا واحدا، وهو أنهما يعرفان ما يدور بين الأبوين، ويريدان أن يخففا من أعبائهما قدر المُمكن. لم أسمع أخوي يتحدثان في شأن اقتصاد البيت، إنهما أذكى، ولا يمكن أن يتحدثا في شيء قد يسمعه الأبوان ويخدش مشاعرهما.

لما سمعَ أبي على القناة أن الصندوق سوف يقدم تعويضات للقطاع غير المهيكَل ارتاحتُ نفسيته، وأخبرَ أمي بذلك مُظهراً أمامي وأمام ياسر وبثينة أنه لم يكن يمر بظروف مالية صعبة، والأمر عكس ذلك، وقفْتُ ميزانية البيت على الحافة، وتعرضتُ للضيق، و أزفتُ من الانتحار لولا مشيئة الله

أوضحت السلطات أن الأسرة المكونة من فردين سوف تأخذ تعويضا بقيمة ثمانى مائة درهم، والمكونة من ثلاثة أفراد إلى أربعة سوف تأخذ تعويضا بقيمة ألف درهم، والمكونة من ما فوق أربعة أفراد سوف تأخذ تعويضا بقيمة ألف ومائتى درهم. وسوف يستفيد القطاع غير المهيكَل بكامله سواء من يحمل بطاقة المساعدة الطبية أو من لا يحملها، شريطة تجنب التلاعبات

كانتُ أسرتنا من الأسر التي تحمل بطاقة المساعدة الطبية، وكان لزاما على أبي أن يرسل رقم البطاقة إلى الرقم 1212، وذلك ابتداء من 30 مارس 2020م. وأعلنت لجنة اليقظة الوبائية في وقت سابق أن صندوق تدبير الجائحة سوف يبتدىء في تحويل التعويضات إلى الأسر ابتداء من 6 أبريل

هذا الخبر أفرح والدي، وبان ذلك على محياه، ولا أخفي أنه أفرحنا أيضا. الأسرة تتكون من خمسة أفراد، وهذا يعني أننا سوف نستفيد من مساعدة قدرها ألف ومائتا درهم عن كل شهر، وهذا يفرح ويبهج خاطر. أنا أحب أن أرى أبوي في سرور، وأحب أن أراهما طرحا الكآبة جانبا

هذه المساعدة لا تكفي، لكنها تقضي أمر الحاجيات الأساسية، من سكر وشاي وزيت ودقيق ولحم ودجاج وسمك وخضر، وعدس وفول وحمس. وكانت الفواكه أبعد عن مائدتنا في أيامنا العادية إلا في المناسبات، أما ونحن في أيامنا هذه فعلينا أن ننساها كليا

ما بقى يعكزُ على أبي هو فاتورة الشقة، والتي كانت تبلغ ألف درهم كل شهر، كان يقصدُ الوكالة البنكية كل شهر لأداء هذا الواجب، والذي ينقصه من عيشنا بغية الالتزام الذي بدأه رفقة أمي ما يزيد عن عشر سنوات، ويريان اليوم أنهما حاربا الله ورسوله، حاربا ما جاء في النصوص القرآنية والنبوية، والتي تحرم كل تعامل ربوي. وإن حدثتُ وتجاوزت الوكالات البنكية عن أبي ومن مائله، وأجلت الأداء، سيكون الكُل لها من الشاكرين

أتى اليوم الموعود، وهو الإثنين 30 مارس. بعد تناول وجبة الإفطار أمسك والدي هاتفه، وفتحَ علبة الرسائل، وكتب رسالة جديدة تتكون من أرقام بطاقة المساعدة الطبية، وأرسلَ إلى

الرقم 1212. خرج أبي لإحضار ما يلزم وعاد، وسرعان ما بدأ يحدث أمي عن حديث اليوم، وهو الرسائل النصية، والتي لم يعرف كثير من الناس كيفية إرسالها، وبدؤوا يستعطفون من يعرف، وكان من يعرف يقدم المساعدة برحابة صدر وأزحية تقاسمها المغربية منذ أزمان، وعرفوا بها منذ عهد، كيف لا يطبقونها اليوم، وهم أحوج إليها. لم يخف أبي سروره، لأنه ساعد رجلا متقدما في السن قدم إليه البطاقة والهاتف، ولم يتردد أبي في تقديم يد العون، خاصة أن المساعدة انتهت بدعوات خير قد تفتح على أبي أبواب الرزق، أو تدفع عنه ضررا

أمي كانت تمطر أبي بالتحذيرات كلما أراد الخروج، تذكره بمسافة الأمان التي وجب أن يتركها مع كل من يقابله، وتذكره بالعطس في منديل أو في المرفق، وتذكره بغسل اليدين عند الرجوع إلى البيت، وتذكره بعدم التأخر، لأنه قد يعرضه للسوء. أمي لا تخشى الوباء فحسب، بل كان تذكرها نابعا من الأعماق، كانت تحب زوجها وتخاف عليه، وتسعى لإرضائه، وهو بدوره كان يفعل ذلك، وإن كانت أمي تعبر عن ذلك أمام الآخرين وبشكل أوضح، وترى ذلك طاعة لله ورسوله، ينشر السكينة بين الأزواج، ويقوي العلاقات الزوجية، أما أبي فلم يكن يظهر ذلك لاسيما أمامي وأمام إخوتي، لكننا نعلم أنه يحبها حبا ملك عليه الفؤاد

مساء زاد فرح أبي لما تيقن على شاشة التلفاز أن ما يروج صحيح، وأن الوكالات البنكية تؤجل واجبات قروض السكن ثلاثة أشهر، من شهر مارس إلى شهر يونيو، مما يحتم على أبي الاتجاه إلى أقرب وكالة ووضع طلب لهذا الغرض. هو يريد إكمال قرض الشقة، وإذا أتم هذا القرض لن يعود إلى أي نوع من القروض الربوية، لأنه كان يعيش مرتاحا في السابق رغم أنه لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئا، ويوم تعامل مع البنك تغيرت حالته، وصار مزاجيا لأتفه الأسباب، وصار يعمل من أجل القرض البنكي لا من أجل أسرته، ضاعت عليه فرص كثيرة للنجاح والارتقاء الاقتصادي والاجتماعي، لكن وجدت الفرصة يده فارغة على عروشها كأنها لم تغن بالأمس، وهو الذي تعامل بالمال، وقلب وجوه العملات في الماضي، وكانت تجارته مربحة، وتراجعت -بالتحديد- لما تعامل مع البنك

-8-

لم أعتد الابتعاد عن آدم، لطالما كنت وإياه، وقضينا حاجاتنا سويا، أما اليوم أصبحت مبتعدا عنه رغما عني، ومن الأكيد أنه اشتاق لي، ويرجو اليوم الذي يذهب فيه الوباء كي يراني عن قرب وأراه. كانت لي معه حوارات على وسائل التواصل الاجتماعي، نتحاور ونتبادل ما يشغل البال، كان كلانا يشناق إلى أيام ابن هشام، ويشناق إلى ملعب الشعاع، ابن هشام كنا نقضي فيها الأجواء الممتعة، ونرى فيها الأصحاب، وملعب الشعاع كنا نحاور فيه المستقبل، ونرى أنه

المكان الذي ينقلنا من الهواية إلى الاحتراف، وقد يكون فضاء ينقلنا إلى فضاء آخر، كأن ينقلنا إلى نادي الوداد البيضاوي أو الرجاء البيضاوي، أو فريق من القسم الثاني على الأقل. هذه هي الأحلام التي كانت تجمعنا، وقوّت علاقتنا

داخل البيت لما ينتهي أخي وأختي من مذاكرتهما، كنتُ أخذ كرة مضرب وألعبُ صحبتهما في ممر داخل الشقة يتكون من ثلاثة أمتار طولاً، وما فوق المتر عرضاً. كنتُ أحاولُ أن أبقى على لياقة بدنية وطلاوة جسم، وأعترفُ أنني كنتُ أحاولُ وقتَ درس أخويّ فلا أفلحُ في ذلك، لأنّ الدرس أولى للأخوين من اللعب. ورغم أن هذه الفترة خصصتها الوزارة للتعليم عن بعد، فقد اعتبرتُها عطلة، كنتُ في راحة، أتابعُ ما يجري عن كثب من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وكلما سمعتُ أمر الدرس إلا اشتغلَ تبرمي، وازداد انصرافي إلى غيره من الأمور التافهة.

أثناء اللعب مع أخوي في ممر الدار كنا نزعج الوالدة، وتتأفف على وضعنا، وتأمّرنا بخفض الصوت ولا نفعل، تحذّرنا ولا نأبه، نبقى في عبث إلى أن يمسننا العياء. وفي هذه الأجواء تخلطُ أمي اليافع والصغير، وتؤكد أنني من يخرجُ الأخوين عن السلوك السوي، وذلك ما يصدق، فأنا صاحبُ كل ضجيج داخل المنزل، ومشعلُ فتيله. كانتُ أمي ترتاحُ إذا ما كان الوالد داخل البيت، لأننا لا نقدر أن نرفع أصواتنا في حضوره، ونرفعها ونلعب الكرة لما يخرج لجلب مشتريات. نكون في هرج، نسمع الأب وضع المفتاح في الغال للفتح، وهذا كاف لتتفرق في أركان المنزل، كأن شيئاً لم يحدث. ولا تخبرُ أمي أبي بما كان يجري مخافة أن يضربني ضرباً مبرحاً، هي تخاف عليّ منه، ولا تخاف على أخويّ، لأن اجتهادهما سوف يشفع لهما أمامه، أما أنا فلا شيء يشفع لي أمام أبي. ولا تكاد الأم تنسى ضجيجنا حتى نكرر الفعلة في يوم آخر، حتى تبحث لمدرسينا عن المعاذير

أدم هو الآخر كان متابعاً ما يجري، ولم يكن يتابع الدروس التي كان الأساتذة ينجزونها عن بعد، وهذا كان يوطد علاقتي به، فقد وافق شئ طبعه، واستنجد غريق بغريق، لا أنا أنصحه بالدرس، ولا هو يفعل، كل كلامنا كان حول الوداد والرجاء وكرة القدم. كان كلما صادف شيئاً يرفه على النفس على صفحات التواصل بادر إلى إرساله لي، وكنتُ أفعل معه الفعل نفسه، وقد يعلق على الأمر، أو يعيدُ نشره، أو يتفاعل مع المرسل

أخبرني أنه يقوم ببعض التمارين الرياضية داخل البيت، ويختار التمارين التي لا تزعج أبويه، ولا تزعج أخته، هو لا يهتم بعلم، ولا يؤدي الآخرين، وفوق هذا يمتلك أبوين يتفهمان، كان أبوه يناقش معه كل جديد بخصوص الوضع الصحي الذي تعرفه البلاد، ويعرفه العالم. كان

أبوه يجتهد حتى يحصن أسرته، وكانت أمه -كما كنتُ أراها- امرأة رزينة تقرأ القرآن، وتوجه الولدين، وتقوم بواجبات البيت، ولا تصيحُ على ابنها أو ابنتها، كانت تتعامل معهما بالحوار، وانعكس ذلك عليهما، فلا يمكنُ أن تجد آدم يصيح، أو يصدر فعلا سيئا، كان مُتزنًا، يعرف ما يريد، وكانت البنْتُ وديعة، ترعى في أمان، وكثيرة التبرم من المشاكل، تصاحب أباهَا وأمَّها وأخاها، وتعتاد أجواء البيت، لهذا لم تشعرُ أثناء الجائحة بالملل داخلَ الشقة، والسبب هو الوداعة وتوجيه الأبوين.

على عكس أسرتي كانت أسرة آدم مطمئنة الحال، ولا تعاني مع الظروف الاقتصادية، لأن الأب كان يعملُ مهندسًا، يعمل مع شركة الضحى التي بنتُ إقامات البركة، وقدمتُ له الشركة الشقة بثمن رمزي، وحدث هذا قبل سنوات، ما جعل الأسرة في بعد عن المشاكل.

هذا الوضع الأسري للمهندس يجعله دائما يهتم بأمر الفقراء والمساكين، يتصدق، ويؤدي كل سنة حق الزكاة، والتي كان يخرجها كل رمضان. كان خير الأسرة دائما يفيض، ولا أدري ما السبب، لعلها الزكاة، ولعلها النفس مطمئنة لرب الأسرة، والذي يكون على الدوام باسم الثغر، يعامل الكل بلين. حال الأسرة كان يجعلني أتمنى أن تكون أسرتي في رخاء، وأتمنى أن نكون مرتاحين ولا أحد يزعجُ أبي، سواء أكان وكالة أم تجارة. تمنيتُ أن أحترف كرة القدم حتى أخرج أبي والأسرة من ما هي فيه. نعيشُ في راحة إذا نسينا أمر الأقساط البنكية، لكن ما إن تقترب نهاية الشهر حتى ترى أبي منزعجا، ويفكر في أمر القرض. القرض السكني أبدلَ حياة أبي، كان يعيش في صحة، وكان يحسنُ إلى أبويه، ويحسنُ إلى أقاربه، ويحسنُ إلى الناس أجمعين، وينفسُ كربة المؤمن، وينفقُ في وسطية واعتدال، ويومَ أخذ القرض السكني مباشرة قل رزقه، وشحَّ صُنْبُور العيش، ووهَى عمله، وكان يقصده الناس، فصار يقصد الناس.

راحة المهندس المالية تجعله يخرج أسرته في نزهة أو نزهتين في الشهر، يأخذ سيارته المتواضعة ويتجه إلى فضاء من الفضاءات الموجودة على الساحل في طريق أز مور، يتناولون الشواء، ويتناولون الفواكه، ويشربون الشاي، ويقضون نهارا رائعا يمتد من الظهر إلى اقتراب صلاة المغرب، وإذا ما مالت الشمس نحو المغيبِ قصدت الأسرة السيارة، وعادتُ إلى شقتها والفرحُ على وجوه أفرادها. يخرجون في نزهات خارج المدينة إلى الجبل، أو إلى الغابة، وربما قصدوا مدينة من مدن المغرب، مثل تطوان، أو طنجة، أو الرباط، أو فاس، أو مكناس، أو مراكش، أو سواها إذا وافقت العطلة المدرسية عطلة الأب.

أحببتُ آدمَ أكثر لأنه لم يكن يحدثني عن خرجاته مع أسرته حتى لا أشعرَ بالدونية. أقصدُ الشقة، وإذا لم يجبني أحدٌ أدركتُ أن أصحابها في غياب، وأطلبُ الله أن يعيدهم بسرعة لأنني لا

أطبقُ الابتعادَ عن صديقي، فليس هنالك من يعوضني إياه في غيابه، وحاولتُ ذلك في السابق ولم أفلح، لأنه كان أكثر من صديق، بل اجتمع فيه الأصدقاء

أذكرُ أنني زرتُ الأسرة في يوم من الأيام وقت الظهر، وجدتُ أفرادها يحضرون أنفسهم للخروج، سلمتُ على الأب وابنه اللذين كانا في انتظار الأم والطفلة، وما كان من الأب إلا أن أرسلني وآدم لإخبار والدتي أنني سوف أذهبُ مع الأسرة، وطلب منا ألا نتأخر في العودة. ذهبنا مسرعين لإخبار الوالدة، والتي قبلت العرض بسرعة وما كانت لترفض، لأنها تعرف أسرة آدم، وتعرف أنني سوف أكون في مأمن. عدنا بسرعة، ووجدنا الأم والبنت جاهزتين، والثلاثة ينتظرون داخل السيارة. جلس الأب أمام المقود، وجلست الأم بجانبه، وأنا وآدم والبنت في المقعد الخلفي. ضغط المهندس على الزر، وإذا بصوت صبحي إسلام يملأ المكان، ويكلم الأنفُس، ويخاطب هؤلاء الأحياء طول الطريق

أحب المهندس هذا الصوت، وكان صوتا شبابيا، ذاع صيته في تلك الأيام، أحبه الشباب، لأنه شاب أولا، ولأنه صاحب صوت رخيم ثانيا، يقرأ القرآن ويمضي بك نحو المعالي، يقرأ هازا أركان الجسد من مكانها، يخفض حيناً ويعلو بالصوت حيناً، حتى لكأن المرء في عالم آخر، ونبضه في عالم

بدأ صبحي إسلام يكلم الجماعة، والجماعة ساهمة تحترم المقام، كأنها اتفقتُ مُسبقاً أن تستمع إلى القرآن، ولا تلغُ أثناء قراءته أيّاً كان القارئُ وأيّاً كان المكان، وأيّاً كان الزمان

قد تكونُ الأسرة تعرفُ أين تتجه، لكن لحدّ الساعة لا أعرف أين نتجه، وما هي إلا نصف ساعة حتى بلغنا المقصد، إنه الفضاء الذي أسمعُ عنه في بعض الأحيان، وليس باستطاعتي زيارته، إنه فضاء العائلة. وفضاء العائلة هذا يوجد على الساحل على الطريق المؤدية إلى مدينة أزمور، على بعد كيلومترات من الحي الحسني. هو فضاء تزوره الأسر للترفيه وتغيير الأجواء، يُقصدُ لتناول وجبة الغذاء أو العشاء، ويكون مُكتظاً في فصل الصيف، وهو معروف تحديداً بالشواء

دخلنا الفضاء، وبحثنا عن مكان يأوينا، وما كدنا نجلس على الكراسي التي رصتُ حول طاولة إسمنتية حتى قام المهندس وقصدَ الجزار، وهناك طلبَ مزيجاً يتكون من لحم مفروم، وقطع من لحم الخروف، وقليل من كبد وقلب الثور، وبعض النقانق، وقدمَ الكل لرجل بالقرب من المشواة، واتجه نحو المقهى طالبا إبريق شاي. ولأن الوقت صيف اتجه نحو بائع الخضر والفواكه، وهناك طلب بطيخة كبيرة، وعنبا أسود وأصفر، وبرتقالاً وتفاحاً وموزاً، ثم عاد إلى حيث المجمع. وما هي إلا نصف ساعة حتى رأينا النادل يقصدنا حاملاً في يده اليمنى صحناً



كبيراً يظهر للرأي لحمه الطازج من بعيد، وفي اليسرى حملَ خبزاً، سلمٌ ووضعَ الصحن والخبز، ثم مضى يُحضِرُ صينية الشاي وخليط الفواكه التي بدتْ أجملَ حينَ امتزجتْ ألوانها الحمراء والسوداء والصفراء والبرتقالية.

أكل الجميعُ حتى شبعنا، وكنتُ وقتها كسفير يدخلُ بلداً وينال الترحيب من كل صوب،  
الجميعُ كان يكرهُ  
كل، إياك أن تخجل -

ولم يخفَ خجلي على الأسرة، كنتُ أكل بطريفة فوق المؤدبة، ولو كنتُ مع آدم لوحدها ما تصرفتُ هكذا، ولرايتني أسرع كأنني أرمي الأكل لا أمضغه، لأن السرعة أصبحتْ عندي عادة.

وشاهدت الأم ما أنا عليه من خجل وحشمة وحاولتُ أن تلتطف من روعي، وأن تلتطف الجوّ،  
وقالتُ:

لا تخجل، وكلّ في راحة، واعلم أنّك في مقام ابنا، أنتَ وادم في نظرنا أخوان، كل كما تأكل -  
في بيتكم

قالتُ ذلك حتى أطمئن فقط، هي كانت تعلم ما أنا عليه من شغب وسلوك منحرف، لأن أمي تلتقيها وتخبرها بكل جديدي، وكانت أمّ آدم تذكرُ أمي بعدد الأبناء، وتدعوها إلى شكر الله ما دام الشغبُ سوف يذهبُ مستقبلاً، وتذكرها بأبناء مسهم الانحراف الأخلاقي، واعوجاج القيم، وانصرفوا إلى التدخين والمخدرات بشتى أنواعها، وهنا على أمي أن تحمد الله ما دام الشغب الذي أنا عليه شيئاً زائلاً.

ما كانت تقوله أم آدم لأمي صحيح، فقد كنتُ أكره التدخين والمخدرات وغيرهما مما يذهبُ العقل والجسم، وكنتُ أصاحبُ آدم لأنه كذلك. انصرفتُ إلى كرة القدم وأنسنتي كل ما يمكنُ. يؤذيني ويسبب لي سوء

أنهينا الغذاء واتجهتُ وادم وأخته إلى فضاء مخصص للعب، وهناك الأرجوحة، والدراجة والسيارة البلاستيكيّتان الكبيرتان، وسلم التزلق، والبحرُ القريب تراه إذا صعدتُ السلم للتزلق. رفهنا على الأنفس وعدنا إلى حيث الأبوين، وكانَ العصرُ أذن بحوالي الساعة، وتحديدًا لما كنا نتناولُ الغذاء. اتجه الأبُ إلى مسجد صغير للصلاة، واتجهتُ الأمُ والبناتُ إلى الجزء المخصص للنساء للصلاة أيضاً، وبقيتُ مع آدم ننتظر. كان آدم مثلي لا يصلي، ولم يكن

الأبوان يقسوان عليه، بل يعاملانه بالحكمة ويناقتشان معه الأمور كأنه شاب أو كأنه يقربُهما في السن، وهذا كان يمنحُ الفتى سرورا ظاهرا انعكس عليه.

يعلمان آدم في يسر خال من التبرم أو الانصراف، يتركون له الحرية، ويعلمان أنه سيعودُ إلى طريقتهما المثلى، وسوف يخلصُ نفسه بمساعدتهما ويسر توجيههما وحكمتهما في تربية البنين.

توسّط الوقتُ بين العصر والمغرب، وعدنا إلى البركة، والتي دخلناها على بعد حوالي نصف ساعة من أذان المغرب. توقفت السيارة أمامَ العمارة، شكرتُ الأبوين وودعتُ الأسرة التي لم تخفِ جانبِ الابتسامة، وقصدتُ بيتنا.

-9-

أخي بدأ يحب القراءة ويهواها، أنهى الرواية الأولى المعنونة بأحلام المسييبي على ضفاف سبو، وقدمها لأختي كما طلبتُ، وكأنه يريدُها أن تتبعه في مشروعه الفكري الذي بدأه قبل أيام. الأيام عرفتُه على شيء جديد يحاول أن يمسك بخيوطه، عرفتُه على القراءة المتعددة فوائدها. هو صغير السن لكنه يقرأ كتب الكبار، ويجاهد حتى يفهمها، أتم الكتاب الأول وأخذ الكتاب الثاني، إنه بعنوان حياتي، وهو للكاتب المصري أحمد أمين، وهو سيرة ذاتية يروي فيها السارد أيام حياته كما عاشها في القاهرة ومصر.

أمسكتُ أختي في إصرار الرواية، ورأيتُ أنها تريد أن تنتهي قراءتها بسرعة، ظهر لي ذلك من خلال الساعات الكثيرة التي كانت تقضيها عيناها أمام الصفحات، هي لا تريد أن يسبقها ياسر في شيء، هي تغبطه، تريد أن تمضي معه في مغامرته هذه، وتريد أن تمسك الكتاب الثاني.

صاحب ياسر كتابه ثلاثة أيام، وأردتُ اختباره، وكأني أتحداه، وأتحدى إصراره هذا. غايتي في الحقيقة هي أن أكسر حاجز الملل الذي كنتُ أحس به، فلا شأن لي في الكتب ولا في أصحابها. قلتُ موجهًا الخطاب إليه:

من صاحب الكتاب؟ -

إنه الكاتب المصري الكبير أحمد أمين، إنه صاحب فيض خاطر، وضحي الإسلام، وفجر - الإسلام، وإلى ولدي، والأخلاق، وزعماء الإصلاح في العصر الحديث. إنه صاحب تجربة فكرية متفردة كتبتُ عن العقل العربي

من أين عرفتَ هذا؟ -

من وقائع السيرة الذاتية، ومن بعض الفيديوهات التي تتكلم عن هذا العلم -

كيف استطاع أن يؤلف هذا الجمع من الكتب؟ -

كان في صغره يطوف على المكتاتيب حتى استطاع جمع القرآن في صدره، وبعد ذلك تخرج -  
قاضيا في إحدى المناطق الصحراوية في مصر، لكنه ترك القضاء، لأنه كان يعشق التدريس،  
ويحب أن يكون أستاذا لا قاضيا. ترك في مرحلة من مراحل حياته -برغبة من أبيه الذي  
استشار في تعليمه بعض المعارف- التعليم العتيق، والتحق بالتعليم المدني، واستمر يحفظ القرآن  
على يد بعض الشيوخ، مما جعل برنامج التعليم اليومي مكثف الأنشطة

أهذا كل شيء؟ -

لا، هذا ليس كل شيء. دخل مدرسة القضاء الشرعي، وبعد مرور أربع سنوات تخرج، -  
واشتغل فيها أستاذا مساعدا يدرس الأخلاق، وهناك سيتعرف شيئا جديدا، حاول أن يبحث عن  
مدرس يعلمه لغة ثانية، بحث وبحث إلى أن وجد امرأة علمته الإنجليزية، وحرصت خلال  
سنوات تحصيله أن تنمي مهاراته وقدراته وذوقه. وكانت ترسله عند صديقة مريضة ثرثرة  
حتى يسمع الإنجليزية من أبنائها. صبرَ حتى أينعت الثمار وحن القطاف، وأخرج تلك الكتب  
التي زينت المكتبة العربية

كان يشرحُ كأستاذ متفوق في مجاله الأدبي، وكنْتُ أراه بارعا يعجز كثير من الخلق عن  
مجاراته. صراحة أذهلني وجددَ شعوري باحتقار النفس، كان يشرح وأستاذة بالقرب منا تتابع  
في ولع ما يجري وما يُروى. هي تتابع عن حب ما يجري لا عن تحايل على الملل كما فعلت  
أنا.

بثينة لا ترضى أن يسبقها ياسر في شيء، هي على الدرب معه، تتحالف معه على أي  
شيء، لا يتكلمان ويقيمان التحالفات وينتصران. كل منهما يحب للآخر الخير، يسيران على نهج  
مستقيم، وكم حاولا أن يجراني، لكن خابا، لأن إصراري على الكسل كان أكبر، ولما أيقنا  
عنادي تركاني في راحة، بل في سُبَات

إنه الوَلع بين أحضان الكتب، أيكون أستاذ ياسر حقنَ ياسرا بحقنة حُب الكتب حتى نراه  
مصاحبا إياها لا يفارقها ولا تفارقه؟ أيكون ياسر كان على استعداد لهذا الأمر الجميل؟ يبدو -

لي- أن التحفيز هو الذي كان ينقصه حتى يسبح في يَمِّ الكتب، ويُصاب في فؤاده، لكنْ ماذا عن بُثينة، أهي الأخرى أحبت الكتب أم أنه العناد؟

إذا كان حُبّ ياسر للكتب أصبح واضحا، فإن حُبّ بثينة للكتاب لم يتضح بعد، وقادم الأيام يوضح ذلك. قد تكون أختي معاندة ياسرا، ولا تحب أن يبتعد عنها معرفيا، سوف نعرف ذلك مُستقبلا لا محالة

بعد إتمامهما للكتابين قراءة جاءت مرحلة النقاش بين أستاذ صغير وأستاذة صغيرة

ياسر، أنهيت قراءة الكتاب الثاني؟ -

جيد. ماذا بدا لك من خلاله؟ -

أحمد أمين كاتب كبير، يعرف كيف يجلب القارئ، ويبقيه في صفه -

ماذا تقصدين؟ -

أثرت فيّ حياة الكاتب، وأثر في أسلوبه، لم أفارق السيرة الذاتية حتى أتممتها، كنتُ كلما - وضعتها جانبا اشتقتُ إلى العودة إلى صفحاتها حتى أعرف المزيد عن حياة الكاتب طفلا وشابا. هو نابغة زمانه، يستدرج القارئ بأسلوب رشيق

عليك أن تعلمي أنه عاش في فترة ازدهر فيها الأدب شعرا ونثرا، وعرفت ظهور طه حسين - وأمثاله

من طه حسين هذا؟ -

أديب كبير ولد بإحدى محافظات مصر، وكان ضريرا، لقب بعميد الأدب العربيّ، درس في - مصر وفرنسا، كتبَ عديدا من الكتب منها سيرته الذاتية الأيام، ويروي فيها هو الآخر حياته، وكان صديقا حميما لأحمد أمين، وتحدثَ عنه أحمد كثيرا في سيرته. وعرف نشاطه الأدبيّ كثيرا من الجدل المَحْموم مع مُتفقي عصره

عليّ أن أقرأ حياته أيضا -

سوف أسأل أستاذي عن سيرة طه، إن كان يملك نسخة منها لن يبخل علينا بقراءتها، هو أستاذ - فاضل يحب الخير للتلاميذ، ويُسر كثيرا إذا ما علمَ أن أحدا قرأ كتابا أعاره إياه. عندما كلمته عن وقائع الكتاب الأول أدركَ أنني قرأته، وفرح ذلك الفرح كله. جميع التلاميذ يذكرونه بالخير،

وأباء التلاميذ يحبون أن يدرسوا أبناءهم على يديه، نراهم في أول السنة يسألون عنه، ويتمنون أبناءهم في قاعة درسه.

معك حق. أسمع عن أستاذكم، يقال إنه مجنون بالقراءة -

ما أجمله من جنون، إنه جنون يصنع العظماء الذين تمرح البسيطة أنهم مرّوا فوقها، وتمرح -  
إن أصبحوا تحتها

نرجو أن يزودنا بأكثر عدد من الكتب، أريد أن أقرأ المزيد، أحس أثناء القراءة بخفة دم -  
ونشاط

قالتُ بثينة هذا الكلام الأخير، وانقطع شكّي، وأدركتُ أنها أيضا أصبحت متعلقة بالكتب،  
وأنها على موعد مع السمو الفكريّ، وأن الأستاذ استطاع جرّ قارئين لا قارئ، وأنه صاحب  
الفضل.

-10-

كنتُ أكلّم آدم على مواقع التواصل، نضحك ونعبث ونتحدث في الماضي القريب والبعيد،  
ونرجو أن يزول الغمّ، وأن يذهب فيروس كورونا إلى حال سبيله كي نعودَ إلى حياتنا، فالكل  
أصبحَ مالاَ حياة بين أربعة جدران، ومع الوجوه نفسها

الناس أصبحوا في البيوت قليلو صبر، لا يصبرُ الواحد على الآخر، كان لاحتكاك الناس  
بعضهم مع بعض إيجابيات، وكانت لهذا الاحتكاك سلبيات. ومن الإيجابيات أن أصبح الأب  
يحاوِر أسرته ويعرف دقات قلب أفرادها، ويعرف زوجته، ويعرفُ أبناءه، أصبح على اطلاع  
كيف يفكر أفراد الأسرة، وأصبح يقوم بدور الأستاذ إلا إذا كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة  
آنذاك تجده تخرى عن مهمة الأستاذ. ومن السلبيات أن أصبح الرجل يقوم بكل الأشغال خارج  
البيت بعدما كان يعينه ابن أو ابنة أو زوجة، وأصبح ضجرا يغضب لأتفه الأسباب وأحقرها،  
خاصة إذا كان من أهل الإدمان

انقلبت حياة الناس وحرّفوا عدة حقائق، وقدروا الحكومة المغربية التي قامت بدور محوري،  
وكانت رائدة في توجيهاتها وتوصياتها. أخرجت البلاغات ونسقت بين مختلف المتدخلين  
لمواجهة الوباء، وحذرت، وأوصت، واقتدرت، ولم ينم لها جفن. تعرف الناس في بلدي على  
المهن التي ينبغي تقديرها والرفع من شأنها، ورأى الناس شرطيا يصون عملية العبور  
ويراقبها، وطبيبا وممرضا يجاهدان من أجل إنقاذ حياة عليل، وعامل نظافة يتحدى الوباء،

ويخرج مواجهها جيش الفيروس حتى يقهره، وأستاذًا في منزله يدرسُ طلابه عن بعد بأبسط الوسائل المتوفرة لديه، ورأى الناس بقالا يفتح الدكان لا يهاب كورونا، وإنما غايته أن يتزود المواطنون بالمواد الأساسية، والمشتريات الضرورية، ورأوا فلاحا يعمل حتى يزود السوق، ورأوا صانعا يؤمن ما يحتاجه السوق من كمّات ومعقمات ومنظفات، ورأوا مخترعا يكتشف جهاز التنفس الاصطناعي.

نسي المغاربة المآسي وتشبثوا بهذه الاجتهادات، وكل أملهم أن يرحل الوباء، ويترك لهم هذا الوطن الجديد، والذي التقت فيه الوطنية مع الوطن، وما فرح الناس إلا علامة الرضى بما تحقق لمواجهة إمبراطورية الوباء، والذي حملَ الأمل بمغرب جديد في المستقبل. هل تستمر هذه الاجتهادات؟ المستقبل وحده هو الذي يجيبنا عن هذا السؤال الذي يحمل الأمل والأمل. يحمل السؤال الأمل لأنه يذكر بالماضي، ويحمل الأمل لأنه قد ينقلنا إلى الوطن الذي حلمنا به منذ أزمان.

كما قلت، كنت أتبادل مع آدم كل ما يمكن أن يخلق بيننا التفاعل. وبينما يناقشُه أبوه في مقال أرسله إليّ. ورغم أنني لا أحب القراءة إلا أن الوقت الفارغ الذي كنتُ أنعمُ به جعلني أقرأ كل شيء متعلق بكورونا.

من المقالات التي تابعتها بشغف مقال -أرسله آدم- كتبتُه سوسن الأبطح، وهي أستاذة في الجامعة اللبنانية وكاتبة تنشر مقالاتها في جريدة الشرق الأوسط. كتبت مقالا في جريدة الشرق الأوسط بعنوان التعليم الأخطبوطي، تقول فيه: "رب ضارة نافعة، ومن قلب الوباء تولد الابتكارات. خلال أسبوعين فقط، ومن دون الخروج من المنازل، عقدت الصين سلسلة من المؤتمرات على الأنترنت، وأنجزت المنصات، وأطلقت أكبر عملية تعميم رقمية عرفتها البشرية حتى اللحظة، جمعت أكثر من 200 مليون تلميذ، بمقدورهم متابعة دروسهم من بيوتهم، وبكفاءة عالية. خبراء في التربية وصفوا التجربة بأنها مذهلة ولا سابق لها. الفرادة أيضا هي في التنسيق الأخطبوطي بين هيئات ووزارات وأساتذة وطلاب، دون أن يلتقي أحدهم الآخر. تقوية للشبكة، تدريب للمعلمين، تحديد للبرامج، تقييم للمواد المطلوبة وساعات التدريس، ولا تنس التوجيهات الصحية لمكافحة الفيروس. كل شيء وضع ليجعل الجالس خلف شاشته، يتلقى المعلومات ويسير في العام الدراسي، وكأنما لا وباء في الخارج.

الإجاز الصيني سيفتح النقاش حول التعليم الرقمي على مصراعيه، رغم المقاومة الشديدة له في بقاع كثيرة. سيتبين أنه ليس خيارا تنتهجه الدول أو تذهب إلى غيره. من فرنسا إلى إيطاليا ولبنان والإمارات، الجميع يتحدث اليوم عن ضرورة متابعة التعليم في المنازل بسبب كورونا،

وغدا ستكون محن أخرى، لكن أي تعليم؟ ولماذا يبقى حكرا على المحظوظين؟ أميركا مثلا، رقمنت تعليمها، ولا مشكلة لديها في الأزمت. مع انقضاء الوباء، ستكون العيون قد فتحت على نمط تربوي جديد، يعود به التلامذة إلى صفوفهم، في دول أنضجتها الأزمة، وأمدتها بخبرة استثنائية. المنطقة العربية ليست من بين هؤلاء، من الصعب أن تكون، وهي لا تزال مغולה إلى التلقين. العادات القديمة أسرة ومطمئنة. واللجوء إلى التكنولوجيا، بقي في كثير من المرات، مجرد انتقال شكلي من الورق إلى الشاشة، تغيير في الأدوات دون تحول عميق في العملية التعليمية نفسها.

الرقمنة التعليمية تعني أكثر من تزويد كل تلميذ بلوح ذكي. هي أيضا التطبيقات التحفيزية، التي تتيح التفاعل، ومشاهدة الصور والأفلام، وتصحيح الإملاء للطلاب، وتقييم امتحاناتهم، وقياس تطور مكتسباتهم ومهاراتهم أليا. هي تحول الأستاذ من أمر للفريق إلى قائد أوركسترا في الصف، جل ما يفعله هو أن يحدد مهمة كل مجموعة أو تلميذ منفرد، ويترك لهم مهمة الإبحار، ويتدخل حين تطلب منه المساعدة. هي بناء مواطن يعرف ما يريد، وكيف يبحث عن الإجابة ويقارنها بغيرها، ليصل إلى الأكثر إقناعا.

في الدول الإسكندنافية التي تتقدم أوروبا، المحور في الصف هو المعلومة وليس المعلم كما كان الحال أيام الكتاتيب. الأساس هو الرد على فضول الطفل وأسئلته، وليس فرض منهج عليه أن يبتلعه خلال العام. تحاول فرنسا الخروج من شرنقتها وتتعثر. بالطبع تسبقنا بلاد موليير سنوات ضوئية، مع ذلك الصعوبات هناك ، قد تفيد في فهم ما سيواجهنا، لحظة نقرر تغيير جلودنا التربوية التي حشرنا أنفسنا فيها دهرا.

يواجه الفرنسيون صعوبات مالية جمة لتبديل الأدوات العتيقة، لكن الأهم هي المعارضة داخل الكادر التربوي نفسه، وعدم القناعة بأن الشاشة تستطيع أن تحل مكان الورق. هناك مقاومة دور النشر، المستفيد الأول من المداخل الباهظة. والأصعب هو المعدات التكنولوجية نفسها وتطبيقاتها الأذكى من الذكية التي يجب أن تنطق بالفرنسية، وتكون صناعة وطنية، لا دخيلة من إحدى الشركات الأميركية الكبرى. التعليم أمن قومي، وشأن وطني.

يكتشف الفرنسيون لوبي ميكروسوفت الذي يحاول اختراق سوقهم التعليمية، ويجدون في ذلك فضيحة تتوجب جبهة مقاومة عريضة. الطفل تعليمه يجب أن يكون صناعة فرنسية خالصة، وبمعدات محلية.

في بلادنا نستورد الكتاب والمنهج وربما الأستاذ ولغته أيضا وتقاليدته كذلك. الأصالة في التعليم ليست من بين همومنا. لدينا كثير مما يحتل أولوياتنا. لكن الوقت لن يطول قبل أن نصل

إلى قناعة مفادها أن لا مستقبل من دون تعليم تفاعلي وطني، وباللغة العربية تحديدا. هذا سيفتح الباب واسعا أمام تعليم لغات أجنبية عدة، لا لغة واحدة. التجربة مشجعة، فالتواصل المباشر مع الأستاذ الذي يمكن أن يعطي دروسه وهو في بلده الأم، ويجعل التلامذة على تواصل مع أقرانهم في دول أخرى، هذا هو السبيل الأسرع لتعليم لغات الغير من يبايعها

أكثر من 100 مليار دولار حجم سوق المعدات التعليمية التكنولوجية. السوق العربية لا تزال بكرا. لحظة تتخذ وزارات عربية، خاصة إذا كان القرار شاملا لعدة دول، الخطوة الكبرى للذهاب نحو التعليم التفاعلي بالعربية، ستجد المستثمرين المحليين ينتظرونها. نقص الأموال ليس سببا للتقاعس. مئات الدولارات يدفعها كل تلميذ سنويا، ثمنا للكتب والأقلام والدفاتر، هذا يمكن أن يوظف في المعدات الذكية. ما نحتاجه بالفعل، هو تضامن بين أهل الضاد، تفاهمات تربوية بينية على نموذج تعليمي حديث يشتركون في تمويله وتطويره، كل بحسب ما يملك وما يقدر. السياسة تثبت سمومها في أنفاسنا. لنحرر أطفالنا من خلافاتنا العابرة. بمقدورنا أن نتناحر على أي شيء، أن نتقاذف التهم قدر ما نشاء، على أن نحيد المعرفة جانبا، أن نجنب أطفالنا تجرع مر الكأس الذي جربناه. تمكنت كارولينا الشمالية، أكثر الولايات الأمريكية فقرا وفشلا في مدارسها، من التغلب على عاهاتها، بتبني التعليم التفاعلي الماهر. صارت مشتتهى الأهالي الراغبين في رؤية تفوق أبنائهم. نحن أمة فقيرة، وقريبا قد نقرب من العدم. الهوة تتسع بشكل مخيف بين من يتعلم ومن يتلقن، ولا خلاص لنا من الجهل والعوز ورؤية مزيد من أنهار الدماء المريرة، بغير تحرير أطفالنا بدءا من الحضانات، من عبودية لا تزال تتحكم بكثير من أنظمتنا التعليمية الجائرة. لا أريد أن أصدق، ونحن في هذا الزمن الذي صارت فيه الآلات تحلل وتستننتج، أن طلابي في الجامعة يسألونني بعد كل محاضرة، إن كان ما شرحتة هو للحفظ أم للفهم؟ هذا سؤال سوريالي، يضرب على العصب، ويستدعي الجنون". الجمعة 11 رجب 1441هـ / 6 مارس 2020م، عدد 144115074

قرأتُ المقال وفهمته، ولو قرأته في حياتي الاعتيادية لن أفهم منه شيئا، لكن مع الحجر الصحي أصبحت أكثر وعيا بالعالم من حولي، وأصبحتُ على اطلاع واسع، ولو واصلتُ سأكون من الناجحين، لكن أعرفُ أنني لنُ أفعل، لأن اهتمامي الكبير ينصبّ على كرة القدم. الحجر الصحي جعلني أعرفُ أنني لستُ متعثرا كما أظن، وأني قادر على العطاء في دراستي إذا ما ركزتُ على الجوانب التي أحبها. ركزتُ على ما أحب، وصرتُ عارفا بما يجري، وأكثر نضجا، لعل ما يدرس في المدرسة يكون خارج اهتمامي، لهذا تراني عازفا عن الدروس، متطلعا إلى كرة القدم، والتي أجدها الملاذ الآمن



لو كنتُ متأخراً معرفياً ما فهمت ما يجري، ولكن لزاماً أن أسأل الآخرين لإفهامي، لكن أنا أفهم في حضرة الوباء وحدي، والأكثر أنني أتفاعل وأدلي بدلوي مبتعداً عن الإشاعات وما يُروج للتضليل، وقد نصحتني بالابتعاد عن الأفعال المشينة المهندس، والذي أثق فيه ثقة، وأجعله في مقام أبي، لأنه يقدم لي نصائح غالية

وأنا أقرأ المقال تذكرتُ أخوي، ورأيتُ من باب الواجب أن أشارك هذه المادة المعرفية معهما، قد يضيفي كل واحد منهما مذاقاً يزيد النص لذة

.إسمعا هذا المقال -

بدأتُ أقرأ وهما ينصتان إلى أن أنهيتُ المقال مذكراً بصاحبته التي تشتغل في مجال اللسانيات، رغم أنني لم أعرف ما المقصود بمجال اللسانيات هذا

.إنه جميل بحق -

مدح الحياة التعليمية الجديدة في الصين، وفي العمق بكى ما يوجد عليه التعليم في بلداننا. من -  
الأکید سوف يغير الوضع الراهن نظرَتنا إلى الواقع، وسوف يعيد الاعتبار لعدد من القطاعات ومن بينها التعليم

المقال يصف وضعنا الحالي. مثلاً نحنُ في منزلنا لا يمكن أن ننخرط في التوجيهات التي -  
أوصت بها الوزارة بغية الرفع من التعليم عن بعد، والذي يُعتبر ضرورة حالياً، والسبب أن ربّ الأسرة بالكاد يستطيع تأمين قوت الأسرة اليومي، فهل يستطيع توفير هواتف ذكية ولوحات إلكترونية لنا جميعاً؟ وهل يستطيع تزويد الشقة بصيب أنترنت حتى نكون في الموعد؟

.الجواب واضح، لا يمكن لأبي ذلك، عمله على قدره -

.أضف إلى ذلك أن أبي فارقَ عمله منذ شهر، ولو لم يفارقه ما استطاع توفير جميع حاجياتنا -

المؤشرات تشير إلى أن بلداننا العربية بعيدة عن التعليم الذي نجحت فيه الصين، قد ننجح في -  
المستقبل، أما اليوم فلنحاول الاجتهاد حتى يمضي الموسم الدراسي

.هناك قضية أخرى عميقة يطرحها المقال. الكاتبة رغم اجتهادها ربما غابَ عنها أمر -

ما هذا الأمر الذي غاب عنها؟ -

كيف تكون الصين أول من ظهر فيها الفيروس؟ وكيف تتغلب عنه بسرعة في حين ينتشر في -  
الوقت نفسه في باقي المعمور ويحصد آلاف الأبرياء؟ هناك أمور تُطَبَّحُ تحت الطاولة بين الدول

العُظمى. أنا لا أتهم الصين، لكن تبقى الاحتمالات واردة. السياسة وبحرها علّمانا أنّ الأطروحة المكيافيلية تجعلها إمبراطوريات الأنانية فوق كل اعتبار.

هذا طرح آخر، ويحملُ الرسائل. من يدري ما يجري بين الصين وأمريكا والاتحاد الأوروبي؟ -

أضفى الأخوان على المقال نكهة زادتنا فهما وتعمقا في الموضوع، وأبحرثُ بنا في بحر المعرفة الذي كلما كانت الظروف صعبة إلا تقدم الأفراد إلى أن يكونوا على مسؤولية.

أخبرتُ -لاحقا- صديقي أن المقال لاقى استحسان الأخ والأخت، وهنا تشجع وتحفز، وأرسل لي مقالا آخر ناقشه المهندس معه، ونشرته مجلة الدوحة في عددها الخمسين بعد المائة، وفيه يبدي المفكرون الصينيون وأدباؤهم آراءهم أثناء تفشي الوباء في ديارهم. وكان المقال بعنوان زهرة البرقوق لا تسقطها الرياح، سبب الاسم أن زهرة البرقوق في ووهان -وهي موطن الوباء المنتشر- لا تترك شجرتها رغم قوة العواصف التي سرعان ما تهدأ، وتعود الحياة إلى الشجرة. نقلت المقال عن الصينية المترجمة المصرية مي ممدوح. ولأن المقال طويل اكتفيتُ بقراءة ما هو أهم في المقال، وما هو هذا الأهم؟ وماذا قال الواعون؟

هؤلاء أهل فكر والتزام بقضايا الأمة، وقضايا الصين، وقضايا الإنسانية جمعاء. وعادت هذه الإنسانية المُحفزة مع الفيروس، وكان سببا في طرد الأنانية، وعود الروح القومية، ورجوع الهوية الجمعية. هؤلاء أهل فكر وثقافة، وهذه هي أقوالهم التي سيخلدها التاريخ:

تبه نينغ: ينبغي علينا أن نبذل قصارى جهدنا للتغلب على الصعوبات معا. يرتبط الأدب - بالذاكرة، ويهتم بالجواهر، ويتطلب الالتزام، ويحتاج إلى عمق التفكير. وأنا على ثقة من أن زملائي الكتاب قادرون بطرق شتى على توثيق هذا الوقت العاصف، وتجسيد الإدارة التي لا تنزعزع للأمة والوطن.

لي جينغ تسه: سيجتاز بلدنا العظيم وأمتنا الصامدة الموحدة الشتاء القاسي وتستقبل الربيع. - وفي مثل هذه اللحظات أمدّ بصري إلى ووهان وهوبي، وأتطلع للناس هنالك، والذين قاتلوا بشجاعة في خط المواجهة، والذين التزموا بيوتهم

مويان: سنطارد بقلب رجل واحد شبخ الوباء، ونشيّد سور الصين العظيم بإرادة الجماهير -

وانغ منغ: معلق القلب بووهان، مرسلا التحايا للأطعم الطيبة. ليكن الدفاع محكما حتى يندحر - الوباء. وليكن الحرص على القراءة والكتابة قائما، فالوقت من ذهب. وبالصحة والتفاؤل، تتحقق أفضل النتائج في أشد الابتلاءات.

- ليو جين يون: خلال مسيرة مكافحة الوباء، برزت الكثير من الشخصيات الجديرة بالاحترام، - علاوة على العاملين في المجال الطبي الذين هرعوا إلى ووهان، فكانت أصواتهم وكفاءتهم المهنية قوام أغنية تمس القلوب.
- جي يدي ماجيا: علينا الإيمان أن الصين اليوم ستخبر العالم أجمع من خلال الحقائق أن مواطنيها لن يهزموا في مواجهة أي مخاطر أو صعوبات.
- سو تونغ: يمكن لهذا الوباء أن يصبح ذاكرة لا تنسى لدى كل صيني. هذه الذاكرة لا بد أن تحمل -بين طياتها- الألم والتفكر، بيد أن هذه الذكريات جميعها تساهم في صياغة المستقبل.
- خه جيان مينغ: بعد تجربة وباء سارس في بكين فيما سبق، أفكر في أن أقول لمواطني ووهان - يمكننا التغلب على كافة الجوائح، وفي نهاية المطاف ستدفي الشمس كل شبر من الأراضي الصينية.

من خلال هذه الأقوال وغيرها من أقوال المقال أدركتُ أن القومية الصينية لعبت دورا في محاصرة الوباء، وأن الإرادة هي التي قهرت فيروسا لم يصمد مع الصينيين. زاد إعجابي بالعقلية الصينية أكثر حين بدأت تنشر خبرتها، وتحاول أن تنقذ بتجربتها العالم مهنيا وإنسانيا.

## -11-

في خرجة إعلامية يؤكد الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس أن العالم يواجه أسوأ كارثة بعد الحرب العالمية الثانية. والخسائر المادية والبشرية في العالم تؤكد ذلك، والأمم بدأت تصيحُ وتستنجد وترجو أن يرحل الفيروس إلى غير رجعة، لأنها لم تعد قادرة على مواجهته، ويكلفها فوق طاقتها.

الأمم المسلمة ترجو الله، وترفع الأيدي إلى خالقها حتى تعود الحياة إلى طبيعتها، ويعود الناس إلى حياتهم العادية، والتي سوف تعرف تغييرا على جميع الأصعدة، وفي جميع الميادين، وإن لم تستفد الدول العربية والإسلامية من الوضعية الراهنة، سوف تبقى دون مستقبل.

يؤكد المشتغلون في البيئة، والمهتمون بها، أن كوكبنا ارتاح من الانبعاث الحراري، وأن الأرض تنفست بعدما خنقها الإنسان، والذي أثبت عدم مسؤوليته تجاه الكوكب الذي يعيش فيه، كما أثبت أنه لا يهتم بحياة الأحفاد، ولا يهتم بحياة الإنسان القادم، والذي من حقه أن ينعم بالخيرات. الاستغلال المتوحش هدم الطبيعة وأقلقَ خضرتها حتى فاضَ غضبها على العالم، ولم تفرق بين ظالم ومظلوم.

استراحت الشوارع، وارتاحت الطرق السيارة، وحلقَ الطيرُ، وتنفست الورود، وانساب ماء العيون والأودية والينابيع والسواقي يجري، وغردَ البلبل وسقسقَ العصفور، ودبَّ الحلزون فوق الحجارة، ورقصَ الشحرور بين الأعشاب، وأخذ السمك في البحار دورة للراحة البيولوجية.

عملت المصانع التي بقيتْ تفتحُ أبوابها يدا في يد مع الطبيعة، عقدتْ اتفاقاً مع نفسها ألا تسيء للطبيعة أو تحتقر شأنها. اتجهتْ إلى العقلانية وقضتْ على الأنانية، وربطتْ علاقة أخوية مع اللون الأخضر علّها تنقي رثيته من الأوساخ.

صوّرت الأقمار الصناعية الأرض في أجمل حُلة خالية من كل ما يكدر خاطرها أو يؤلم جوّها، ويرهبُ حيوانها، ويزعجُ غطاءها. إنه لون الصفاء من الأعلى، لعلّ الأرض طفحَ بها الكيلُ وأرسلتْ جنداً من جنودها لإفهام الإنسان الذي أذى نفسه بالدرجة الأولى، ولم يستوعبْ خطورة أفعاله إلى أن دمرَ الحيوان والنبات والحجر من حوله، واليوم هو يؤدي ثمن أفعاله.

في المغرب عملَ المغاربة بجدّ بشهادة الجميع، في كل يوم هناك بلاغات تخرج، وهناك توجيهات ونصائح، لم يبخل العارف على المواطن بشيء، الكل متعاون للخروج من الأزمة بأقل الخسائر. ولما بدأت ترتفع نسبة الإصابات، وترتفع نسبة الوفيات جراء الوباء، صارَ لزاماً على المواطنين ارتداء الكمامات، ولا يرتدي هذه الكمامات إلا من يملكون شهادة التنقل الاستثنائية، وإلا يعاقبُ من لا يضعُ الكمامة بعقوبات تحمي الجميع، لأن الغاية من وراء هذا الإجراء حماية المواطن.

خرجَ أبي يتسوق، ولما قضى ما تحتاج إليه الأسرة عادَ يحكي ما شاهد في هذا اليوم الجديد، ويصادف السابع من أبريل

اليوم الأول من فرض الكمامة على المتنقلين الاستثنائيين خارج البيت، البعض يضع الكمامة، - والبعض يسأل في الصيدليات والمحلات، وجل المحلات تنتظر وصول الكمامات حتى تكتمل العملية.

:وتسأله أمي

هل الناس لم يستوعبوا بعد أن الكمامة تحمي؟ -

على العكس، من الواضح أن المواطن أصبح على علم بما يجري، من وجد الكمامة وضعها، -  
ومن لم يجدها يسأل سؤال من يصر على الشيء، وهناك جماعة أخرى ابتكرت أقنعة ريثما  
تتزوّد المحلات بقطع النسيج التي لعبت دورا هاما في بلاد الصين

هل ستكون باهظة الثمن؟ -

لا، قيل إنها سوف تموّل من صندوق تدبير جائحة فيروس كورونا، وسيكون ثمنها ثمانون -  
سنتيما، وتصلح لأربع ساعات إلى ثماني ساعات من الاستعمال، وسوف تصنع منها المعامل  
ثلاثة ملايين في كل يوم، على أمل أن تصل المعامل إلى خمسة ملايين كل يوم في الأسابيع  
المقبلة.

هذا شيء يفرح، وهذه نتيجة العمل -

إنه تكاتف الجهود بين وزارة الصناعة والتجارة والاقتصاد الرقمي، ووزارة الصحة، ووزارة -  
الاقتصاد والمالية وإصلاح الإدارة

هكذا يتبين أن الأسرة في كامل قواها، وأنها تعرف ما يجري في بلاد المغرب الأقصى،  
وأنها تعرف كل جديد

قبل إعلان ضرورة ارتداء الكمامات بيوم واحد بدأت عملية توزيع المساعدات المادية على  
الأسر التي تضررت جراء تفشي الوباء. قيل إن ربّ كل أسرة سوف يتوصل برسالة نصية  
تشير إلى مقدار المساعدة وزمنها المحدد ومكانها. وذكر الإعلام المغربي بمختلف منابره  
المواطنين إلى ضرورة العمل بالاحترازات الوقائية

بقيّ أبي أسبوعا كاملا ينتظر وصول الرسالة النصية حتى ظن أنه خارج المساعدة. وبينما  
هو في حالة ترقب وصلته رسالة نصية يوم السبت 11 أبريل، تخبره بمقدار مساعدة قدرها ألف  
ومائتا درهم، وتخبره بالرقم المرجعي الذي سوف يدلي به للوكالة وبطاقة التعريف الوطنية كي  
يأخذ المساعدة

الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا، غادر أبي الشقة إلى الوكالة التي سوف يأخذ منها  
المساعدة المالية، وكانت قريبة من الإقامة التي نطقها. وما هي إلا ساعة حتى عاد أبي محملا  
ببعض المواد الأساسية، وضعها، وضرب موعدا مع نفسه في الغد أن يتجه إلى السوق لإحضار  
ما نحتاجه من خضر ولحم وسمك

بدا السرور واضحا على وجه أبي في نهاية هذا الأسبوع، المساعدة سوف تقضي حاجة البيت قليلا، وسوف نرتاح بمجرد ما نرى أبانا مرتاحا يشاهد أخباره آمنا في سر به

-12-

كان يوم الجمعة 10 أبريل يوما مشهودا، استدعى فيه الصحافي البارز صلاح الدين الغماري وزير التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي سعيد أمزازي، والذي انضافت إلى مهامه مهمة أخرى، حيث أصبح الناطق الرسمي باسم الحكومة. البرنامج هو أسئلة حول فيروس كورونا، وتبثه القناة الثانية المغربية بعد نشرة الأخبار المسائية، ويقدمه الصحافي بالعامية المغربية، ربما للتوعية والتحسيس على أكبر نسبة. كان يستدعي الصحافي أطباء ورؤساء مصالح إدارية ومالية واقتصادية، وجمعويين، على الهواء مباشرة، أو في الأستوديو مع أخذ كامل الاحتياطات

أسئلة حول فيروس كورونا برنامج تلفزيوني جاء بعدما حطّ الوباء حقائبه في المغرب، وكان يجيب عن أسئلة المواطنين كانوا آباء، أو أمهات، أو أطفالا، أو شبابا، أو شيوخا، ويجيب عن أسئلة المتدخلين بمصداقية ومهنية تضع لغة الخشب بعيدا

حاور الغماري السيد الوزير في عملية التعليم عن بعد، وأجاب الوزير عن الأسئلة بشفافية، وأكد أن السنة البيضاء غير مطروحة ما دام التلاميذ سبق أن درسوا خمسة وسبعين في المائة من الدروس، وأكد أنه في حالة عودة الأمور إلى حالتها سوف تكثف أسابيع الدعم، وستعمل الأطر التربوية على إنهاء البرامج الدراسية. ونفى ما يسمى الامتحان عن بعد، وهي دعوة لبعض الأساتذة حتى يعودوا إلى جادة الصواب، وبيتعدوا عن هذا النوع من التقييم الذي أصبحنا نسمع عنه مؤخرا. وأكد أن الامتحانات الإشهادية ستكون على طريقتها المعتادة، وفي حجرات الدراسة بالضبط، وما على الأساتذة إلا أن يواصلوا تقديم الدروس عن بعد

أروع ما في الحوار أن الوزير أكد أن الدروس عن بعد لا تعوض الدروس الحضورية، وأن التدريس والتعلم عن بعد ليس إجباريا، ويبقى اختياريا للأستاذ والتلميذ معا. عرض ما وصلت إليه الوزارة من تقدم، حيث إنها قامت رفقة شركائها في أمد وجيز لتحضير مضامين رقمية على الإنترنت للتلاميذ في جميع المستويات والتخصصات، وفي مختلف الأسلاك، من التعليم الابتدائي إلى التعليم العالي والتكوين المهني. ولم يغفل الحديث عن المضامين الرقمية التي تحضّر حتى يستفيد منها التلاميذ في مادة التربية البدنية والرياضة. وتحدث عن التلفزة المدرسية، وما قدمته من دروس على الشاشة قرّبت المعرفة إلى التلاميذ، وهنا نوّه بدور الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة التي بذلت جهودا جبارا لبلوغ الغاية وتعميم الدروس. وذكر

أن إحصائيات المندوبية السامية للتخطيط تشير إلى أن فوق التسعين بالمائة من السكان المغاربة يمتلكون التلفاز، وهذا سوف يسهل على الفئات غير المستفيدة من الشبكات العنكبوتية كي تصل إلى الدرس. وشكرَ الوزير في الأخير كل المتدخلين لإنجاح العملية التعليمية التعلمية في هذا الظرف الصعب، أساتذة ومفتشين وتربويين وصحافيين

الكل أقر بالمصادقية التي تحدث بها السيد الوزير، والذي أجاب عن أسئلة الغماري وأسئلة المتدخلين عبر منصات التواصل متجنباً لغة الساسة، بل تكلم مع المغاربة بوضوح، مما جعل رواد مواقع التواصل يشيدون بصراحته وأريحية خاطره طيلة عدد البرنامج

-13-

الصين أول بلد يهزم الفيروس تصالح مع نفسه، ورأى التعاون ضرورة حين بدأ يصدر تجربته للتعامل مع الفيروس القاتل، وبفعله هذا يتصالح مع الدكتور الصيني لي وينليانغ، وهو أول مكتشف للفيروس الخائق، واتهمته السلطات -حينما حذرَها من تفشي فيروس قاتل- بنشر الإشاعة وإخافة الصينيين، لكن لما انتشر الفيروس احترمَ الدكتورَ الجميع، وإن جاء ذلك بعد وفاته متأثراً بأعراض المرض

خيراً تفعل شراً تلقى، هي الأمور هكذا تمضي، أنتَ تريدها هكذا، بينما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. أراد وينليانغ إصلاح الوضع ما استطاع، لكن لم ينجح، ويا ليت الأمر بقي في عدم النجاح، لأن القضية تطورت أكثر، وأصبح الدكتور تحت الضغط، وباتت السلطات تتبع خطواته كأنه نطق بالحُمق، تسعى لإخماد ثورته، وإسكات صوته، وما نجاه من السلطات الصينية هو الموت، وهكذا الناس لا ينصفون الحي بينهم، ولا يجلون رفيع المقام بينهم. مات وأصبح أسطورة، لماذا لا نفهمُ الناس في الوقت المناسب؟ لماذا يغرد الإنسان ولا ينتبه إليه أحد؟ لمَ الناس جبلوا على الندم بعد فوات الأوان وذهاب الإخوان؟ لمَّا يذهب الواحد آنذاك نتأسف لحاله، ونأسى لزمانه، ولمَّا يكون بيننا لا نرفعُ هامته، ولا نأخذ بوصيته، ولا نسمعُ روحه، ولا نضمد جروحه، حتى إذا ما ذهبَ -إلى غير رُجعة- استيقظنا، وتمنينا رجوع الزمان، وخاطبنا الأحلام، وأكثرنا الأحزان

هذا طاقم طبي أرسلته الصين، وهذه الكمامات آتية من الصين، وهذه خبرة صدرتها الصين، وكان الصين يبدأ عهدها الجديد، كأن بلاد ماوتسي تونغ تبعث من جديد، كأنها الدولة التي سوف تقود العالم بعدما قادتُه الولايات المتحدة الأمريكية، كأن الفيروس أتى ليصنع قادة جدد، ويضع قادة كلاسيكيين، من يدري؟ لا أحد يعرف الجواب، ووحدها الأيام تفعل، وتجيئنا عن كثير من الأسئلة العالقة. الأقلام تسيلُ وتكتب، وتساءل، ولا تجدُ الجواب الشافي، والكتاب في

كل يوم يؤلفون عشرات المقالات، ويذيعون عشرات الأخبار عن العالم قبل كورونا وأثناءه وبعده، ويقارنون، يفسرون ويشرحون، ويتنبؤون، وكل واحد ينطلق من المجال الذي ينبغ فيه، ويمسك آلة التصوير من الزاوية التي يعيها

الكل كان يؤمن بنظرية القرية الصغيرة، أو ما يُسمى بالعولمة، والتي جعلت العالم أصغر وأصغر، وحوّلته إلى سوق صغيرة، لكن مجيء الفيروس التاجي غيّر الأعراف، وقطع الحدود الدولية، والإقليمية، والوطنية والجهوية، بل ألغى الحدود بين حيّ سكني وآخر، بل ألغى الحدود بين دار ودار، وأبعد القرابة والنسب، وجعل الأقارب في حيرة، والأبعد في غيبة

هل فعلتها الطائرات؟ كانت تحمل الإنسان من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، لكن ماذا وقع؟ هل أصبح الطائر الضخم عدو الإنسانية؟ كان ينقل الناس من مكان إلى مكان، وقرب الكيلومترات، واختصر المسافات. اليوم توقفت الطيور الضخمة عن التحليق وسكنت فضاءاتها، وراحت لا تنقل إنسانا ولا بشرا، أراحت محركاتها، وأراحت أجنحتها العريضة، وارتاح ربابنتها الذين اعتادوا السياحة، والقعود في المقصورات

حلقت قليل من الطائرات تحمل الغدّد، لكن في حذر شديد وشديد، لا تلوي إلا على مساعدة هذا البلد أو ذلك، وتقديم يد العون له، وإعانة العالقين، وتوزيع المدد، وإغاثة الآخر في عمل إنساني

أوقف الرئيس الأمريكي دونالد ترامب التمويل عن منظمة الصحة العالمية، وأعلن هذا مُدعيا أن المنظمة العالمية لم تفعل شيئا لمواجهة الوباء، وخلف هذا القرار جدلا واسعا في الأوساط السياسية. قد يكون قرار ترامب سببا جعل مدير المنظمة يدعو إلى توحيد الجهود للقضاء على الوباء. مع مدير المنظمة الصواب كله، لأن هذا وقت حان فيه رفع الخلافات، وطرحها جانبا، والتعاون للخروج من الأزمة، والتي تفوق الأزمة الاقتصادية في سنة 1929م، وتفوق الأزمة المالية في سنة 2008م، والتي بدأت من اليونان. هذه الأزمة خلفت أضرارا بالغة لم تنج منها حتى الإمبراطوريات التي طالما افتخرت بكونها تعرف كيف تخرج من الأزمات، وهذا بخلاف ما يراه العالم أجمع اليوم، وهل من رأى كمن سمع؟ لعل هذه الإمبراطوريات لم تواجه امتحانات، وهذا هو الامتحان الحقيقي، وقد تنجح فيه أو تُهان. والقارة السمراء قد تكون سمعت كلام مدير منظمة الصحة العالمية، وبدأت التشاور والتشاور، وشعارها الدائم مبادرة جنوب جنوب، والتي ترتئي من خلالها إلى توطيد العلاقات وبناء ذاتها بسواعدها المحلية خاصة أنها تملك الثروة البشرية والطاقية والمعدنية رغم استنزاف الأوربيين، والأجمل أنها



تنهج سياسة رابح رابح، وإن فعلتُ سوف يؤدي منطقتها الحكيم إلى بناء قارة تنافس الاتحادات الكلاسيكية شريطة أن تعمل وتعمل.

وعلى عكس ترامب يقرّ المتحدث باسم الخارجية الصينية تنغ شوانغ أنّ الصين تدعم منظمة الصحة العالمية. ماذا يلوحُ في الأفق؟ لعلّها حرب باردة بين معسكرين، بين مُعسكر معروف ومعسكر يحاول البُرُوز، بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الصين، لا أحد يعرف ما يجري بالضبط، وقد لا يُعرَف ما يجري. الصين خرجتُ عن جِياِدها السياسي، والولايات المتحدة الأمريكية تريدُ مواصلة زعامتها للعالم، وأوروبا غارقة في بحر الوباء وعواصفه الرعدية وموجه المتلاطم.

علّمتُ هذه الإمبراطوريات العالم أن ينصت إلى كلامها، تتكلم كثيرا ولا تفهمها الدويلات، هذه هي سياستها، وهذا هو دينها، لا أحد يُباريها في مُراوغاتها وإحرازها للأهداف، لأنها تجيدُ المُراوغة أثناء التدريب، وتحضر للقمم بشكل جيّد.

العالم كله في شغل لإخماد حريق كورونا، وأحفاد العمّ سام يسعون لإنقاذ الاقتصاد الأمريكيّ ولو على حساب المُواطن الأمريكيّ ذاته، وأبناء ماوتسي تونغ يردّون. هناك شيء يُطبّخ تحت الطاولة، والعالم يتفرج ولا يستطيع فعل شيء أمام قوّتين كل واحدة تريد الزعامة.

هل هو مجرد وباء يحتاجُ العالم أم أن هناك شيئا بين بلاد المليار نسمة وبين بلاد الخمسين ولاية؟ لا أحد يستطيع التكهن بالقول الفصل رغم القيل والقال. هل الصين فعلا تحاولُ مساعدة العالم أم أنها متورطة ترتدي كساء الوَقار؟ هل هي السبب في هذه المآسي التي ضربت الإنسان وأعادته سنوات إلى الوراء؟ وهل الولايات المتحدة الأمريكية تحاول الدفاع عن الإنسان أم أنها تخشى ضياع الزعامة؟

لا الصين تستطيع أن تخبرنا الحقيقة، ولا أمريكا تستطيع، ولو أخبرنا الحقيقة ما صدقناهما، ونحن نذكر ذلك الحكيم الذي سئل: ما ضرر الكذب؟ فأجاب: ألا يثق الناس بقولك حين تصدق. يُنيّ العالم الرأسمالي على هذه السياسة، الجميع يفهم ما يقوله زعماء الدول وينشر على القنوات، وفي الأخير يجد المرء أنه لم يفهم من كلام الزعماء فتبلا.

نحنُ في 4 أبريل، والأمرُ جلل، وعددُ الإصابات في تزايد مستمر، وعددُ الوفيات يزداد كل ساعة هُولا ويُفزع. وصلَ عدد الإصابات -بسبب كورونا- في المغرب إلى 2024، وعددُ الوفيات إلى 127، ويبدو لحد الساعة المغاربة متحكمين إلى درجة كبيرة في الوضع، إجراءات الحَجْر الصحيّ المُبكرة أعطتِ النتيجة. وفي العالم الغربيّ الذي لم يعتمد الطوارئ الصحية إلا

عندما استفحلَ الوباء، وشبَّت النار في الهشيم، وانتشرت بين الناس بصورة مُهولة لم تدع مجالاً لرجال الإطفاء. ماتَ في نيويورك وحدها في هذا اليوم 752 شخصاً، وبلغت نسبة الوفيات في تركيا 1518، وفي بلجيكا 4440، وفي الجارة إسبانيا 18579، وفي السويد 1203، وفي روسيا -التي حلت بها الجائحة مؤخراً- 198، وفي فرنسا وإيطاليا يزدادُ الوضعُ سوءاً

العالمُ على أعصابه مشدود إلى شلل اجتماعي يتبعه ركود اقتصادي، ورغم هذا هناك بلدان تودُّ العودة تدريجياً إلى الحياة الاجتماعية، ومن هذه البلدان ألمانيا التي عازمت العودة إلى المدارس بالتدريج بدءاً من الرابع من ماي، وهناك بلدان تدرس هذه الإمكانية دراسة الشجاع الحذر، هل تستطيع القيام بهذه الخطوة في الزمن الذي حددته أم الفيروسُ سيرغمها على التأجيل لا التعجيل؟ هل بإمكان هذه البلدان أن تقصدَ ثمانية الأمانة التي سكنها هازم الذات؟

هذا هو العالمُ هذه اللحظة، وحدّ المشاغل، وبعدَ أن كان كل ينادي نفسي نفسي، أيقن كلٌّ مَنْ عليها فإنَّ التعاونَ هو الكفيل لتخرجَ الإنسانية من فم الزجاجاة، وأنَّ الحكمة هي السفينة المُنجية، وهي البساط السحري، أما القرارات الفردية الشجاعة قد مضى عليها الزمن ولم تعدْ تجدي، وإنما تزرع التفريقة التي يستغلها اللعينُ ويمضي في تمدهه، ويعثو في الأرض فساداً

قد تكون الأخطاء التي وقعَ فيها الغربُ ساهمت على الأرض العربية، وتركت حدودها متحركة في المرض نسبياً، وقد يكون لحنكة السياسة الحالية النصيب الأوفر. ومهما يكن، فأصحاب البذلة البيضاء على الأرض العربية يتحكمون في الوضع، وينقذون البلاد

-14-

ظهرتْ عديد من المبادرات الرياضية ذات الأثر الطيب، قامَ بها رياضيون عالميون ساعدوا بنصيب، وأظهروا الجانب الإنساني فيهم، ولسان حالهم يقول: "أحسن إلى الموبوئين تستعبد قلوبهم". أفعالهم هذه من الممكن أن تكون للدعاية، لكن على العموم تبقى مبادرات حسنة قامت هنا وهناك، ولم يستحوذ عليها ميدان رياضي عن ميدان آخر، بل ظهرت المبادرة في كرة القدم، وهنا مَنْ تبرع وهو ينتمي إلى عالم كرة السلة، ومَنْ ينتمي إلى عالم الكرة الصفراء مثل روجي فيديرير، ومَنْ ينتمي للنادي الفلاني وللمنظمة الرياضية الفلانية. وكان الاتحاد الدولي لكرة القدم أو ما يسمى اختصاراً الفيفا من أكبر المساندين والمساعدين للاتحادات العالمية، ومن أكبر الداعمين، كانَ بالإضافة إلى المساعدة المادية يحذر بعض الأندية من استئناف بطولاتها، ويعمل على نشر كل جديد منسقا مع المنظمات الصحية العالمية

الأسطورة ميسي يتبرع لمؤسسة في برشلونة، ويتبرع لبلاده الأرجنتين، واللاعبون المحترفون المغاربة والذين ينشطون في الدوريات الأوروبية يفعلون ما فعله ميسي، ويتبرعون - حسب الاستطاعة- في صندوق تدبير فيروس جائحة كورونا، بلّ ويظهرون في تسجيلات يحفظون غيرهم للقيام بهذا العمل النبيل. وهناك من اللاعبين المغاربة من دعم بالقول أو بالعمل أو بهما معا مثل اللاعب السابق عزيز بودربالة، ومصطفى الحداوي، ومصطفى حجي، ومثل اللاعب الحالي للمنتخب فيصل فجر وغيره.

والألمان -كالعادة- في الموعد مع التاريخ، وهكذا هم أحفاد المستشار الألمانية أنغيلا دوروتيا ميركل، أو الماكينات الألمانية، يخاطبون الإنسان، ويجلبون احترام العالم برسائلهم المتجددة في كل زمن وحين، لا يرجون مالا ولا مدحا ولا جمالا، يريدون الارتقاء بالإنسان والدولة، والتي عُرف الألماني بولائه لها مهما كانت الظروف. هذا الفريق الأصفر الألماني، أو فريق بروسيا دورتموند، يمثل مدينة كبيرة في الدوري الألماني، فتحَ بابهُ في وجه المرضى، وأقامَ مستشفى ميدانيا في النادي، أبرز من خلاله قمة في الوعي، وحنكة في الإحسان الماديّ، وحكامة في التسيير الإداري.

وهذا فريق روما الإيطالي، ماذا فعل لاعبه؟ لقد استغنى لاعبو فريق العاصمة الإيطالية عن أجرة أربعة أشهر لمساعدة الفريق على تجاوز أزمته. وهذا فريق مارسيليا الذي ينشط في العصابة الفرنسية يقدم لأطباء فرنسا المأكل والمشرب، وهم في عملهم يواجهون الفيروس الفتاك. وهذا فريق الخفافيش، وهو لقب فريق بلنسية الإسباني، ماذا فعلَ؟ خفضَ أجور لاعبيه، وموظفيه، وذلك بغية مواجهة الأزمة، والتي فاقت الأزمات. فريق المدفعية اللندنيّ، وهو لقب أرسنال الإنجليزيّ، واتفقَ هذا الفريق مع لاعبيه على خفض الأجور ما عدا أجر اللاعب الألمانيّ مسعود أوزيل، ولاعبين آخرين، فلم يتوصل الفريق لحدّ الآن مع هؤلاء الثلاثة لاتفاق.

هذه تجارب رياضية ريادية تفتح المجال أمام أندية أخرى تأتي بالمثل، أو تأتي بالأحسن. ما يهم هو التعاون لا تبادل الاتهامات كما جرى بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين، لما اتهمت أمريكا الصين بصناعة كورونا، والصين تنفي أن تكون سببا في انتشار الوباء، ومثل هذا ينتشر على مواقع التواصل، التي تتقاسم فيها الرؤى بين مؤكّد أن الوباء صناعة صينية، وبين مؤكّد أن الوباء صناعة أمريكية، وكلاهما يريد إضعاف الاتحاد الأوروبيّ الذي فرضَ سياسته عالميّا، كما فرضَ علامته التجارية، والسياسة المغربية مُحايِدة لا هي مع هذا ولا هي مع ذلك، تهوى أن تخرج من الأزمة العالمية بخسائر قليلة.

هكذا العالم يخرج من النفعية، ويجري ويهتم بالآخر، لا يفكر في بُعد المسافات، ولا في تلك الخلافات، الوباء أعاد التفكير الكوني، وأرجع بطاقات اعتماد فكرية جديدة تطوي الخرافات. أصبحنا في عالم لا مثيل له، وكأننا في الحلم، لكن الأجل أننا في حقيقة لا في خيال، إبتعدنا عن العالم الوحشي ذي المخلب والناب، وتركنا عالم الغاب، وما عاد القوي منا يبطش بالضعيف، وما عاد الرئيس منا يغضب للسخيف. ماذا جرى حتى تحول الكون عامته إلى باحث عن الإعانة؟ لم تمض إلا شهور وفعل الخانق ما لم تفعله الحكومات المتعاقبة على الدول طيلة السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، إن هذا لهو المنطق الحق

يأتي الدور على المغاربة حتى يظهروا إشراق فكرهم، ويأتون بالجديد، ويُعلمون العالم سُبُل السلام، ينشدون العون من أماكنهم، ويلعبون المباريات وهم في منازلهم، ما هذا اللون الرياضي الجديد؟ عرفنا كرة السلة، وعرفنا كرة المضرب، وشاهدنا الكرة الطائرة، ولعبنا الكرة الشاطئية، وما سمعنا بمثل هذه المقابلة-التي لعبها المغاربة- في آبائنا الأولين

الوداد البيضاويّ يلعب والرجاء البيضاويّ يباري، وليس العمل بجديد على هذين الغريمين اللذين إذا ذكر أحدهما ذكر الآخر، هل هما توأم سيميّ؟ هل قدرّ لهما أن يتقاسما التجارب؟ هل قدرّ لهما أن يصدرا الرسائل؟ نسمع الجديد منهما، ونقول هذا الأخير، وتمضي رسائلهما، ونتأكد أن في جعبة المشجعين الكثير. وما يزيد المبادرات البيضاوية جمالا أن أصحاب الفكر شباب في مُقتبل العُمُر، لكنهم يحملون أفكارا جريئة وسابقة

كل صعب على الشباب يسهل، وكل حديد في الفرن يلين، وكل مشروع يبدأ بفكرة، وكل سيل ينطلق قطرة. الذهن الوقاد يمضي بالفريقين اللذين تقاسمنا المنافسات وتقاسمنا المبادرات، والتي قد تنطلق من الإدارة، وقد تنطلق من جمعيات محبي الفريقين. هناك جمهور ذواق يطبق ويرفع التحديات، وذاك ما أوصله إلى العالمية، وأضحى العالم يعرف الفريقين، وما أمر الديربيات ببعيد

الجماهير البيضاوية تطرق باب التاريخ وتضرب موعدا مع العمل والإحسان. أقام فريق القلعة الحمراء مباراة افتراضية، باع الوداد ستين ألف تذكرة عبر الإنترنت، وبتلاتين درهما للتذكرة، والغاية هي المساهمة في صندوق تدبير جائحة فيروس كورونا، ومساعدة الأسر التي تضررت، والتي تعاني، وبالمثل سوف يساهم في الصندوق منخرطو الرجاء العالمي، ناهيك عن مباراة افتراضية لاقت استحسان الجمهور الأخضر، ولا تسل عن الطاقم التقني والإداري للفريق الأخضر، وساهما بدورهما في الصندوق. وصمّم الفريقان أقمصا تعود مبيعاتها لمحاربة آفات الجائحة

ولا يزال اللاعبون على وسائل التواصل الاجتماعي يحسسون، وفي الآن نفسه يرسلون رسائل أخرى إلى الناس، ومنها مزاولة الرياضة داخل المنزل، وكان البعض يسجل نفسه وهو يقوم بتمارين رياضية داخل المنزل الصغير أو الكبير. اللاعبون كانوا والتاريخ، ويقومون بما يقوم به كل غيور على وطنه، ينصحون المغاربة بالمكوث في المنزل، وغسل الأيدي باستمرار، وارتداء الكمامة عند الخروج بالنسبة للأشخاص المسموح لهم بالخروج للضرورة القصوى، لأنهم على علم أن الكمامة أصبحت ضرورية من اليوم السابع من أبريل، لما بدأت بُورُ الوباء تتسّع، ويتداخل الحابل بالنابل.

هذا بلباسه الرياضي، وهذا بلباسه العادي، الأمر لا يهم، وما يهم أن فئة هامة من لاعبي الوداد والرجاء تنصح بالكلمة أو بالفعل، وتقدّم التوجيه وهي في مكانها، لاسيما أن فترة الطوارئ الصحية -التي أعلنتها الحكومة بدءاً من العشرين من مارس إلى العشرين من أبريل- سوف تتمدد شهراً إضافياً، أي إلى غاية العشرين من ماي، وقد تتمدد مرة أخرى، مَنْ يدري؟

التمديد الحكومي للطوارئ الصحية جاء نتيجة تطورات عرفت المملعة، حيث ظهرت البُور الوبائية الكبيرة، والتي رفعت نسبة الإصابات بالوباء، حيث فاقت في الأيام الثلاثة الماضية مانتى حالة في اليوم الواحد، مما يُعجّل باتخاذ الإجراءات التي برعت فيها الحكومة منذ ظهور الوباء، وما يكسرها إلا بعض المواطنين غير الواعين وغير الملتزمين، ووصلت حالة غير الالتزام ببعضهم إلى النيابة العامة، والتي باشرت تحقيقها مع ما يقارب ثلاثين ألف حالة خرقت قانون الطوارئ إلى حدود اللحظة، والقادم سوف يُظهر المزيد.

إن نار كورونا ما تزال تسري في الحطب البشري، مما يستدعي التدخل التحسيسي من طرف الرياضيين أو الصحافيين أو الجمعويين أو الكتاب أو المثقفين. ونذكر بالدور المحوري الذي لعبته الصحافة المغربية في التلفزة والإذاعة والجرائد والمجلات، وأعطت ضروبا من التحسيس، وسخرت كل الذي تملك حتى تحسس المواطنين، وتُرهم أدوارهم في هذا الزمن الذي نعيشه.

-15-

هي الدار البيضاء، مَنْ لا يعرفها؟! هي أنفا سابقا، وهي المدينة الاقتصادية للمغرب، مدينة الاستثمارات الضخمة، والأبنية الفخمة. لا تعرف السكون ولا الراحة، الحركة فيها ليل نهار، وصباح مساء، هي المدينة التي لا تنام، ولا ترتاح ولا تعرف الظلام. إذا عشتَ فيها قلت إنها الصخب، وإن غادرتها حنّت نفسك إليها، ولا ترتاح إلا عندما تستوطنها، وتستنشق هواء بحرّها، وتسير فوق ثراها، وتتطلع إلى علو مسجدها.

هي أكبر مدينة في المغرب، وهي حاضرة المعامل والمصانع، إنْ وُجد في مدينة من المدن حي صناعي، ففي الدار البيضاء أحياء صناعية، وإنْ وُجد في مدينة من المدن سوق ممتاز، ففي الدار البيضاء أسواق ممتازة، وإنْ وُجد في مدينة من المدن شاطئ بحريّ، ففي الدار البيضاء شواطئ بحرية، وإنْ وُجد في مدينة من المدن تاريخ نضاليّ مع المستعمر، ففي أنفا تواريخ نضالية.

أنظرُ من النافذة، فأرى الحي كأنه لم يَغْن بالأمس، أرى بعض من يضعون الكمامة، وأغلبهم اشترى ما يحتاج إليه البيت من حاجيات، وأرى سيارة الأمن الوطنيّ أو سيارة القوات المساعدة تقومُ بدورياتها. وأنظر في تمام السادسة من النافذة فلا أرى أحدا، الكل أخذ مكانه في بيته، والجميع حَمَى نفسه من كورونا، والذي يرهبه التفرق، ويخيفه العمل بوصايا السلطات، وهذا ما أخرجه بسرعة من بعض بلدان شرق آسيا.

إذا تكلمت عن شارع الفداء، وشارع غاندي، وشارع الحسن الثاني، وشارع الزرقطوني، وشارع 2 مارس، وغيرها، علِمَ المستمع أنك سوف تتحدث عن ما جرى في شارع من شوارع الدار البيضاء، لأن شهرة شوارعها ملأت الآفاق. وإذا تكلمت عن ساحة الأمم المتحدة، وساحة محمد الخامس، وباب مراكش، أدركَ المستمع أنك سوف تتحدث عن فضاء بيضاويّ. إنها مدينة الجلال والجمال، اختلط فيها المعاصرُ بالأصيل، والجديدُ بالعتيق، وزادت أصالة وعَرَاقَة.

لم أتخيلُ يوما أن ترتاح شوارع الدار البيضاء وساحاتها، ومساجدها، ومدارسها، ومقاهيها، وميادينها. أسستُ كي لا ترتاح، أسستُ كي تبقى في حركة دائمة.

على شاكلة الدار البيضاء نرى على التلفاز العاصمة الإدارية والعاصمة العلمية ومدينة البوغاز والحمامة البيضاء والعاصمة الشرقية وعاصمة البُرتقال والمدينة الحمراء وعاصمة سوس والعيون، ونرى الجزائر العاصمة والقاهرة والدوحة والرياض وبغداد، وباريس وبروكسيل ومدريد وروما وبرلين ومدينة الضباب وموسكو وطوكيو وعواصم عالمية أخرى يملأها الفراغ، ويسكنها الهواء النقيّ، وتخفق في أزقتها الرياح. ما أجمل سكونَ المدينة إذ يسمحُ! بالتأمل! وما أقبَحُ سكونَ المدينة إذا ذكّر بالموت الذي خاطب كل رقعة من العالم

أتساءلُ وأنا أتمعنُ في هذا السكون ما بالُ مدن الألعاب المنتشرة في الدار البيضاء، وأتساءلُ ماذا حلّ بفضاء سندباد، هل لا يزالُ يستقبلُ رواده؟ هل لا يزال أمام بابه الرئيسيّ أولئك الباعة المتجولون؟

وهنا أتذكرُ المُول، وأتذكرُ محلاته والناس تتجولُ، وتقضي مآربها بين متجول فيه ومتسوق  
يوذّ تكسير إيقاع أيامه الرتيبة. ومن يذكرُ شاطئ عين الذئاب، والناس فيه بين سائح ومُزاول  
للرياضة، ومُروّح عن نفسه وأبنائه. ومن يذكرُ الباعة الذين يجاورون المُول، وقد صفتُ  
عرباتهم توحدها عبارة المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، وهي مبادرة من مبادرات المؤسسة  
النشيطة في المغرب، والتي أعطى انطلاقتها الملك محمد السادس انطلاقا من سنة خمس وألفين،  
وقامتُ بتنشيط كثير من المُقاولات في جميع ربوع المملكة، وبنت الإنسان، وركزتُ على  
المجالات الهشّة في المملكة، ورغم ما قدّمته من اجتهاد تظل المملكة مُحتاجة أكثر لمثل هذه  
الحلول البنائية، والتي ترعى المقاولات الصغيرة والمتوسطة. الأجل في المبادرة الوطنية  
للتنمية البشرية أنها تقم مؤسسات الدولة في مشاريعها، بل لا بد لمشاريعها من مراقبة الدولة  
قبل المشروع وأثناء بدايته

أذكرُ شاطئ عين الذئاب، والناس تلعبُ كرة القدم في رماله الذهبية خريفا وشتاء، وربيعا  
وصيفا. يزور الباحثون عن المُتعة هذا الشاطئ يوميًا، هذا هنا، وهذا يُزاولُ كرة القدم هناك.  
أصبحَ فضاء الشاطئ معروفا بمزاولة كرة القدم، وعلى الخصوص ذلك الجزء القريب من  
الفنادق وقاعات الأفراح والمساح

أذكرُ مسجد الحسن الثاني ومُرتاديه من كل الجنسيات يلتقطون صورة من هنا، وصورة من  
هناك، ونسيمُ البحر ينعشهم، والأطفال يلعبون بدراجاتهم الهوائية في ساحته، أو بطائراتهم  
الورقيّة أو ببالوناتهم المختلفة الألوان. وعلى مقربة من المَعلمة المغربية قامتُ حديقة تستقطبُ  
الإنسان من مختلف الأعمار خاصة هُواة الألعاب الرياضية، والذين يمضون في هذه الحديقة  
أوقاتا مُسليّة

هل ما تزال هذه الأمكنة البيضاويّة تحافظ على روادها أم أنهم غادروها إلى حين؟ هل ما  
يزال المُول وشاطئ عين الذئاب والكرة الأرضية وساحة الأمم المتحدة وساحة محمد الخامس  
تغري الزوار بما تقدّمه من مُتعة تفوق كل مُتعة؟

من الأكيد أن هذه الأمكنة أصيبتُ بفيروس السكون، والذي لم يرحم هذه المعالم التاريخية  
والإنسانية، وهذا التراث الإنساني. ألم يعلم السكون أن بعض المناطق شُيّدت لاستقبال الإنسان؟  
أما علمُ السكون أنه يقسو على إرث إنساني وتراث عالمي؟ لعلّه لم يقصد إلحاق الضرر  
بالحجر، لعلّه يقصد البشر

من كان يتصورُ يوما أن الدار البيضاء سوف تستريحُ؟ ومن كان يظن أنها سوف تتمدد على  
السريّر؟ ومن كان يظن أن المرض سوف يلزمها الفراش؟ كيف يستطيع ساكنوها أن يفكروا في

أمر كهذا؟ هل تعيش المدينة آخر أيامها أم لابد لطائر العنقاء الأسطوريّ من عودة بعدما صار رمادا؟

على شاكلة الدار البيضاء احتضنت العاصمة السكون، وظهرت أزقتها بهيئة، وظهرت ثعبانها الأبيض مستريحا من رواده، وكأنه فارغ من رُكابه. كان طرامُ العاصمة مليئا يُودي دورا مهما في عاصمة المملكة منذ أن بدأ عمله كموظف يوصلُ هذا إلى مقر العمل، وهذا إلى محلّ سكنه، وذلك إلى قضاء مأربه، وذلك إلى روضته

ما بالّ الرباط اليوم ساكنة، لكنها ناعمة، تنعمُ في الراحة والهناء والسكون. إذا كنا نرى السكون داءً ينخر المدينة، فهي تخبرنا العكس، وتؤكد أنها كانت مُحاجة إلى هذا السكون، والذي سمح لها بالاسترخاء لحظات قد لا تتكرر، وسمح لها بالإنصاتِ إلى ذاتها ومحاوره النفس.

صومعة حسان كانتُ تحتاجُ إلى أن تبتعدَ عن الزوار حتى تتذكر تاريخها المُوحديّ، وتهاتفَ أختها في مراكش وأختها في إشبيلية. صدقُ أن لصومعة العاصمة أختا تسمى بالكتبية، وأختا تسمى بالخير الدا، كانَ لابد من مخاطبتهما، ولا يسمح بالمخاطبة إلا الهدوء الأخاذ

انظرُ إلى غابة المعمورة لا يقصدها أحد، وانظرُ إلى باب الأحد، وانظرُ إلى شاطئ الرمال الذهبية، وإلى محطة القطار، وإلى شارع محمد الخامس، وانظرُ إلى الإدارات والمصالح التي كان يقصدها المغاربة من كل حدب وصوب. هل سئمتُ هذه الأماكن زوارها؟ قد يكون الجواب نعم، أليسَ من حقها أن تأخذ قيلولَة؟

عاصمة طائر اللقلق سعيدة بما تحقق، وما لقلقة طائرها إلا برهان على سعادة المدينة التي تربعتُ على نهر سَبُو، والذي جعلَ المنطقة خصبة، ما جعلَ اللقلق منذ القدم يستوطنُ المدينة، ويتخذها عاصمة. عششَ هذا الطائر في أعمدة المدينة وأشجارها، وسكن شوارعها وأزقتها، لكنّ الجميلَ -اليوم- أنه يخلقُ ويُلققُ ويمتّع النفس فوق النهر الجاري وعلى سطح الماء الفضيّ. ولم يكن الطائر في المدينة دون أنيس، فقد كان له رفقاء من البِلشون والبط والإوزّ والشحُرور والعصافير. وأضفى اللون الفضيّ لنهر سَبُو على المكان الروعة، واللون الذهبيّ للشمس إحساسا بالدّفء

إذا اتجهتُ إلى الجنوب وجدتُ مدينة البهجة، لكنّ على غير ما عهدته فيها من نشاط وخفة دم ولعب، غادرَ فنانونها حلقاتِ الفرجة، وتركوا ساحة جامع الفنا تترتاح -بدورها- من ضجيج



المنشطين، والمُتفرجين، والمُتجولين، والباعة الفكاھيين. ولا تسل عن حال صومعة الكتبية، ومنازة الكتبية، وقصر البديع.

لكل من هذه المدن طعمها الخاص، ومذاقها المُتفرد، لكن شكت هجرة الصحب وابتعاد الأحباب. وهي من جهة تحب أن تجلس إلى نفسها للتأمل، والتفكر في النفس والملكوت، ومن جهة تشاق إلى تلك الأمجاد، وتتحرق شوقا إلى مُرتادياها.

-16-

الملل جعلني أنضم إلى الأقسام الافتراضية، والتي تجري فيها الدروس عن بعد، وجعلتها الوزارة اختيارية غاية الاستمرارية البيداغوجية. لم أنضم حتى أستزيد علما، فأنا لا أحبه، انضممت لأنني اشتقت إلى أصدقائي في القسم، واشتقت إلى أصواتهم.

لم يلتزم جميع الأساتذة بالتدريس عن بعد، بل التزم بهذا التدريس فئة من الأساتذة، بينما تجنبت فئة هذا النوع من التدريس، لأنه سوف يدخلهم في متاهات أخرى، ومشاكل هم في غنى عنها.

دخلت إلى مجموعة أستاذ العربية المُبجل ودخلت إلى مجموعة أستاذة الفيزياء والكيمياء، كي أتلقى الدروس، والتي لا حظ لي فيها، إنما دخلت لتكسير ملل طال أمده، وتمدد أجله.

من الدروس التي درستها بتوجيه من أستاذ العربية المحترم نص سماعي بعنوان الحادثة، وهو نص سردي يحكي قصة امرأة مرض زوجها وخرجت للعمل، وبينما هي ذات صباح تخرج كعادتها- للعمل اصطدمت بسيارة لم تترك لها فرصة للنجاة. تركت المرأة ستة أطفال، وأكبر الأطفال صغيرة تبلغ اثنتي عشرة سنة. وساعد أناس القرية الأطفال بالمال والهدايا والأطعمة حتى يبقوا مجتمعين تحت سقف واحد ولا يفقدوا حنان الإخوة بعدما فقدوا حنان الأم.

القصة رائعة تنشر قيم التضامن والتكافل والتعاون داخل المجتمع، لاسيما ونحن في الحَجْر الصحي مما يدعو إلى التضامن بين الناس، وهذا ما كان في كثير من بقاع حيتنا ومدينتنا.

من الدروس أيضا التوكيد، وتعرّفنا-من خلال هذا الدرس- التوكيد اللفظي الذي يكون بتكرار اللفظ كان اسما أو فعلا أو حرفا أو ضميرا أو جملة، والتوكيد المعنوي، والذي يُعرف بألفاظ مُعينة من مثل: عين، ونفس، وعامة، وجميع، وكلا، وكلتا... ورأينا محاكاة المواقف الاجتماعية لحلّ المشكلات السكانية، وكان درسا في التعبير والإنشاء، وعرفنا-من خلاله- أنه

لمحاكاة المواقف علينا تفهمها على اختلافها، وانتقاء الأدلة وتنويعها، وعرضها بطريقة جيدة استهدافا للإقناع.

عندما يُنهي الدرس صورُه، وكان سلفا قد كتبه ورقنه على الحاسوب على صيغة وورد. يرسله إلينا لنقله في الدفاتر، مذكرا إيانا باحترام المُكون، واحترام ألوان الأقلام المناسبة، ومراحل الدرس.

الأستاذ هو هو، التزام وجدّ، يحفز ويشجع، ويذيلُ الدرس ببعض النصوص التي يقتطفها من كتاب ويُرسلها إلينا. يقتطف هذه النصوص من ديوان إيليا أبي ماضي، ومن ديوان أغاني الحياة لأبي القاسم الشابي، ومن كتاب إنشاء المُكاتبات العصرية لأحمد الهاشمي، ومن كتب أخرى لها باع في المكتبة العربية.

باتّ واضحا أن الأستاذ يريدُ استدراجنا إلى فعل القراءة، وعبرَ عن هذا في مناسبات عديدة. يذكرنا أن الحجرَ الصحيّ فرصة سانحة للتصالح مع الكتاب، والتصالح مع القراءة. يرى أن العلم لا يحبوه إلا ذكي ولا يجفوه إلا غبي، وهو الرأي الصائب، كثيرا ما عادى العِلْمَ أولو الرأي الفاسد، وأحبه أصحاب الرأي السديد.

رغم البعاد لا يزال أستاذ العربية يقوم بما فوق واجبه، يُدرس، يُحذر، ويوجه، وفوق هذا يهيئنا للمستقبل بأسلوب تطغى عليه الحكمة والرؤية. لا يكثرث لأراء صحبه، ولا لأراء أساتذة آخرين، ما يهمله هو إثبات الذات، وإقناع النفس.

تلمسُ حرارة درسه من بعيد، فتحترمه، وربما كان في نفسك شيء من حتى، وتمنيت أن تقسدَ درسه، لكنْ مع بداية الدرس تجدُ الأستاذَ سَحَرَكَ وجَرَكَ إلى عالم المُثل الذي تحدثَ عنه أفلاطون. تكفيك همسة من الأستاذ فتتسى الشغب، واللعب، وتجد نفسك مع أقرانك تتابع الدرس، والذي لا تحس بفواصل مراحلها، وتدخل في كل مرحلة دون تفرقة مع المرحلة السابقة أو المرحلة اللاحقة، ولما ينتهي الدرس تتمنى لو استمر.

الأستاذ يفرض احتراماً على جميع التلاميذ، كل مَنْ هَبَّ ودَبَّ يعلي شأنه ويقدر مكانته في المؤسسة وخارجها، لأنه قدوة خارج المؤسسة أيضاً، عمّت شهرته أوساطا خارج الثانوية الإعدادية.

أستاذة الفيزياء والكيمياء هي الأخرى بذلت مجهودا لإفهامنا، ورغم ما امتلكتُه من إمكانيات بسيطة قامت بواجبها تجاهنا. واصلت معنا الدروس التي توقفنا عندها لما كنا بين أسوار المؤسسة، ولم ترتخ إلا ونحن فاهمون الدروس.

تأكدت أن الذكاء لا ينقصني، وأن الله وهبني ما وهب المتفوقين من الألمعية والنبوغ الحاد، وعلمت أن القضية لا تكمن في الذكاء النادر، وإنما تكمن في الالتزام والاستمرارية البيداغوجية من طرف المعني بالأمر. أدركت المغالقة، وأصبحت أفهم الدرس بسهولة، هل التجربة الجديدة جعلتني أكثر نضجا؟ ما الذي غيّر سلوكي المعرفي فجأة؟ كيف أصبحت أميل إلى الدرس والأساتذة؟

في الماضي كان الدرس عندي طلامس، لا أفهم من أمره شيئا، كنت إذا نطق لساني انعقد وكان سببا لفهقة الأصحاب في الفصل، جعلوا مني أضحوكة في مواقع، أذكر يوما أن أستاذ التربية الإسلامية سألنا عن لاعبي فريق برشلونة الإسباني، فقمّت مُعلنا أسماء اللاعبين الرسميين، ومن يجلس في كرسي الاحتياط، وكنت في غاية الانشراح وأنا أعدد الأسماء، لكن بعدما أنهيت سألني عن صحابة رسول الله، وهنا انطبقت شفتاي مما جعلني مقر عبث الأصدقاء، ولولا تدخل الأستاذ، والذي أوقف ضحكهم، لضربوا موعدا لهذمي نفسيا. الأستاذ لم يرد الاستهزاء بي ولا الاستهزاء بأحد صحبي، أراد -كما أخبرنا بعد إخماد ضحك التلاميذ- أن يذكرنا بصحابة رسول الله، وأن يبعث فينا محبتهم، وأن يجدد فينا محبتهم، وأراد أن نهتم بهم وبحياتهم، لأن حياة كل واحد من الصحابة هي حياة أمة.

أستاذ العربية يشرح وأنا أفهم، وأستاذة الفيزياء والكيمياء تشرح وأنا أفهم، الدرس أصبح نزهة، كان ثقيلًا، وأصبح ضيفا خفيفا، وفوق هذا رأيتُه عزيزا، هل المشكل كان في أم في الدرس؟

لعل القادم خير، قد أبقى على هذا النسق، وإذا ما بقيت هكذا لأحقق مجدا، ولأبلغن المني بأقل جهد، وأيسر طريق. أرجو البقاء في سلوكي الجديد، والذي بدأ يراه كل معارفي، قد رأته أمي، وتحسسه أبي، وعرفه ياسر وبثينة. قد يكون للأخوين أكبر الأثر -بعد الجائحة- في تغيير مساري الدراسي. أدعو الله أن أوصل، تكفيني ابتسامة من الوالدة حتى أحس باللذة، ويكفيني استرضاء الوالد، والذي أراه بدأ يعقد صلحا معي شيئا فشيئا، لعل غمامة غضبه تنجلي في قادم الأيام، ولعل الحاضر ينسيه ما قدمت من متاعب له ولأمي.

كان يتهرب الأب من كل مجلس أوجد فيه، لكن أراه بدأ يفارق هذه العادة التي فرضتها عليه فرضا. كان يفارق مجلسي حتى أزعوي وأعود إلى رُشدي، لعل ما فعله كان صوابا. رغم تواضع ذكاء الأب استطاع أن يعيدني إلى دراستي، كما استطاع أن يقوم سلوكي

ماذا قرأت اليوم؟ -

كان السؤال سؤالاً بثنينة، ويقتضي الأمر أن أجيبها، وأذيل الجواب بشكر لها ولياسر، لأن  
لهما فضلاً في تغيير مساري التعليمي

قرأتُ قبس سيرة ذاتية لكاتب مغربي اسمه عبد اللطيف الوراري -

ما كان حدث القصة؟ -

يحكي السارد عن فترة من حياته. وأتى الدور على فترة رمضان، إذ كان يسمع بهذا الضيف -  
معتقداً أنه رجل بلحم ودم ولباس. يسرد تاريخ الطفولة في قرية النواصرة، والتي تبعد على  
أربعاء أولاد عمّان بحوالي سبع كيلومترات. كان مرة يفطر في بيتهم، ومرة عند جدته. يحكي  
عن فترة لم يكن فيها مكبر صوت، ولا تكنولوجيا تجود بما جادت به اليوم، كان يصطف  
الأطفال وبطلنا منهم قرب جامع القرية مُنتظرين رفع الأذان، ولما يرفع المؤذن أذان المغرب  
يطلق الصبية سيقانهم للريح، كأنهم هم المكبر الذي يعلم الأهل في الخيمة بأذان المغرب. ذكر  
أن وجبة الإفطار لم تكن كما هي عليه في أيامنا، كانت تتكون من الحريرة المغربية والشاي  
والحلوى

ما اسم سيرة الكاتب؟ -

ضوء ودُخان، وسبق أن نشرها الكاتب، ينقحها ويزيد عليها كي تضاف للطبعة الجديدة، -  
وتوجه للنشر

كم قرأت من جزء إلى الآن؟ -

قرأتُ جُل ما نشره على الفضاء الأزرق متعلقاً بضوء ودُخان -

بدأتُ تقرأ، إن هذا المُنتهى الأفق -

بدأتُ أحس بنشوة في مُمارسة الرياضة، وبدأتُ أمارسُ بعض التمارين الرياضية في البيت  
أمام الجميع، لكن ما كان يُعكر مزاجي هو التفكير في الغد، مُتمنياً أن أحاول التوفيق بين  
دراستي وهوايتي المُفضلة، فهل أستطيع التوفيق بين الدراسة وبين كرة القدم؟ وهل أولف بين  
الجميلين؟

سوف أترك الجواب، قد أوفق في الجمع بين الدراسة وبين كرة القدم، وقد تكون مجرد نشوة  
مرحلية عابرة، وهو ما لا أريده

حاولتُ إرضاء أبويّ، ورأيتُ الفرحة في أعينهما، وفي أعين أخويّ الصغيرين. الكل أصبح يُعاملني بلين، ورغم الظروف المادية -التي نقاسيها بسبب الحجر الصحي- أصبح كل من في البيت يلاطفني، وبدأتُ أشعرُ كأنني ملك في القصر.

أمي أنهتُ توبيخها لي، وتنصحتني في راحة، وتتركني أنام إلى أن أستيقظ لوحدي، وتحضُر لي ما أشتهيه، وأبي أنهى الصدود وصارَ يكلمني في مواضيع شتى، وكان أكثرها متعلقا بفترة طفولته التي ظلت عصية على الفهم، ويفتحُ لنا كتابها، وأخوأي يناقشان معي المواضيع والكتب، وأضحيا يريانني نِداً وخصما يستحق التقدير والاحترام.

-17-

أقبل رمضان، والمغرب مازال يحاربُ الوباء. أقبل المفضل يحملُ حُلة لم نعهدها، وأتى موافقا للخامس والعشرين من أبريل. في هذا العام يخالف الأعوام السابقة، لا مساجد مفتوحة، ولا صلاة تراويح، ولا تجمعات، ولا دعوات أهل أو معارف، ولا درس ولا مدرسة أو معهد. قد أقبل جميلا، لكنه يخلو من الجواهر التي كانت تضي عليه الرونق والبهاء.

أعجب والدي بالأثمنة المناسبة، وكانت تخالفُ أثمنة المواد في رمضان السنوات الماضية بعشر في المئة تقريبا، أتكون الجهات الوصية قضتُ على كل احتكار واستغلال أم تكون قلوب الوُسطاء رقتُ وحنَ حالها؟

أتى المُفضل على سائر الشهور والعالم ما يزال يحارب فيروس كورونا، الإصابات في العالم خيالية، والاقتصادات متوقفة إلى إشعار آخر، والمؤسسات التي وصلت إلى وضعية حرجة وتضررتُ تدعو إلى فتح الاقتصاد والعمل بسياسة التباعد الاجتماعي والخروج تدريجيا من حالة الطوارئ بشكل سلس. وكانت مؤسسات دول أوربا الغربية هي الأكثر مطالبة للخروج من حالة الطوارئ، لأن اقتصادها تأثر عالميا، ويقال إن اقتصادها سوف يتراجع من عشر في المائة إلى خمس عشرة في المائة.

بما أنني بلغت سن الرشد فقد كنتُ من الصائمين. بعد تناول وجبة السحور، أديتُ صلاة الصبح، وهذا جعل والديّ مسرورين، رأيتُ السرور على وجنتي كل منهما. نمتُ ورأيتُ في منامي أن كورونا رجل -من لحم ودم- يجمع أغراضه ويهرب بعيدا عنا، ثم رأيتُه يتبخر ويتبخر إلى أن أصبح لا شيء. استيقظتُ صباحا ووجدتُ كورونا يحصد الأرواح وتمنيتُ لو كان اللحم حقيقة.

وجدتُ أمي تضع الملابس في الغسالة، واتجهتُ إلى المطبخ تغسل بعض المَواعين، وتحضر بعض المكونات التي سوف تحتاجها لإعداد وجبات الإفطار. بعدما رأيتني نظرت:  
وفتحتُ عن ابتسامة

كيف حال العريس اليوم؟ -

العريس؟ وأين هي العروسة؟ -

تأتي في المستقبل؟ -

:تبادلْتُ مع أمي الضحكات، وواصلتُ

.أنت العريس ما دُمتَ رجعتَ إلى الطريق -

أي طريق؟ -

.لا تتذاكى علي، أنا أقصد توبتك ورجوعك إلى الله، ورجوعك إلينا -

كانت تشيرُ إلى الصلاة، وإلى بداية الاجتهاد والتحصيل الدراسي الذي بدأته مؤخراً،  
والتحقتُ بفئة الباحثين عن التفوق، والساعين لمستقبل

عند العشي تحلقنا حول المائدة، والتي اكتنزتُ فوقها صينية صفت عليها كؤوس حازاها  
إبريق شاي يقابله عصير خليط من الفواكه، وضمت إناء طينياً مملوءاً بحساء الشعير مع  
الحليب، وكان أبي يحب هذا النوع من الحساء لاسيما إذا بدأ به وجبة الفطور. ووضعت الأم  
بعض الحلوى المشبكة والتمر والجُبْن البلدي والبيض، وبعض الرغيف والخبز. كانت الوجبة  
متكاملة كأن الأسرة لم تعصف بها رياح الأزمة، ولم تتأثر ميزانيتها ولم يَجْر شيء مع مدخولها  
الشهري المحدود. كنا نتناول وعيوننا مصوبة صوب التلفاز المُصَفح نكتشف ما أنتجته شركات  
الإنتاج من برامج هزلية ومقالب مع المشاهير ومسلسلات وأفلام، وكانت هذه البرامج جلها  
يخلو من الفرجة

أذن المؤذن لصلاة العشاء، وانتظر أبي ربع ساعة وأمرنا أن نتجه إلى الصلاة جماعة في  
البيت. وفي صالون البيت تقدمنا أبي ووقفْتُ وأخي وراءه، بينما وقفْتُ أمي وأختي في صف  
خلفنا. أقمْتُ الصلاة ودخل رب الأسرة في الصلاة ونحن معه، ولم يتوقف حتى أنهى التراويح

في أيام شهر الصيام كنا نتساءل كيف سوف نكمل الموسم الدراسي، هل تعلن الوزارة سنة ببيضاء؟ هل نعود إلى دروسنا الحضورية؟ هل يُعلن نجاح كل التلاميذ؟ وجاء القرار من مجلس المستشارين، وأعلن وزير التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي الناطق الرسمي باسم الحكومة مواصلة الدروس عن بعد إلى نهاية الموسم الحالي، وإلغاء الامتحان الجهوي للسنة الثالثة من الثانوي الإعدادي، وإلغاء الامتحان الإقليمي لنيل شهادة الدروس الابتدائية، والاعتماد في السلكين على نقط المراقبة المستمرة للدورة الأولى والتي أنجزت في الجزء الأول من الدورة الثانية قبل توقف الدراسة بسبب الطوارئ الصحية. وسيكون تلاميذ السنة الأولى بكالوريا في بداية شتتبر مع الامتحان الجهوي، والثانية بكالوريا في شهر يوليوز مع الامتحان الوطني، شريطة اعتماد إجراءات وقائية أثناء إجراء هذه الامتحانات. ومن أجل تكافؤ الفرص سيختبر تلاميذ البكالوريا في الدروس الحضورية، أي تلك الدروس التي حضروها في حجرة الدرس قبل تعليق الدراسة

عتبة النجاح في السلك الابتدائي والسلك الثانوي الإعدادي سيحددها مجلس القسم، وهنا مكن المشكلة، وعين العضلة، سينجح التلاميذ وسترتفع نسب النجاح في المؤسسات التعليمية خاصة في الثانوي التأهيلي، لكن ماذا بوسع الوزارة أن تفعل في هذه الظروف لتتجنب شرارة العدوى. ورغم أن الناشئة ستؤدي الفاتورة على حساب معارفها إلا أن القرار يبقى غاية في الحكامة، والتي أعادت الساسة إلى الواجهة، وأبانوا أنهم يفضلون الوطن على الدرهم والدينار.

فرح التلاميذ بهذا القرار، وبعيئاً في جملة من سكنهم القلق، واجتاحتهم بنات الصدر، وندمتُ لأنني لم أبدأ ذلك الاجتهاد مُذ بداية العام. لاحظ الجميع همي، وطمأنوني أنني سأبلغ المراد وأني سأنجح وسأواصل التفوق في السنة المقبلة

أتى الشهر رحيمًا، وبدأتُ تخف وطأة الوباء، وأصبحنا نسمع عن ما يفوق سبعين إصابة، وثمانين إصابة. استمرتُ السياسة نفسها والمواطنون يواصلون تباعدهم الاجتماعي إلا بعضًا من النيام الذين يواصلون بدورهم سياسة الصم البكم الذين لا يعقلون، وكان مثل هؤلاء قساة الفكر، وغلاظ الفهم، لكن يبقى المغاربة يسيرون الأمور بحكامة جعلتهم يفضلون الإنسان على الاقتصاد الوطني، وهذا ما اتضح بإضافة ثلاثة أسابيع للحجر على الشهرين التي مرت، وما على المواطنين إلا أن يواصلوا الإجابة والالتزام، لأنهم لا يملكون حلاً آخر

عاد الدوري الألماني لكرة القدم إلى منافسات البطولة، ولعبت المقابلات دون جمهور، والتزمت الأندية بالاحترازات الوقائية، وهذا سوف يمكن الأندية من مواجهة تبعات الوباء، ومن مواجهة الخسائر التي وقعت فيها أو المحتملة. وقررت الليغا الإسبانية العودة إلى الميادين يوم

الثامن يونيو حتى تتجب هي الأخرى مثل باقي الأندية الرياضية التدايعيات. وكان الدوري اليوناني الأذكى حين أعلن إنهاء الموسم بتتويج صاحب الترتيب الأول باناثينايكوس بطلا، مع عدم نزول أي فريق إلى القسم الموالي، وبذلك كان قرارا أرضى المكونات الرياضية، وأنهى جولة من الترقبات.

أعطت السلطات الأوامر كي تصلى صلاة العيد في المنازل، وتغلق المحلات جميعها يوم العيد دون استثناء، وهذا ما جرى، وأعجب العقلاء، لأن كل تهور للمغاربة في هذه المناسبة قد يعيدهم إلى نقطة الصفر، وهو ما لا يوده أحد من الناس.

يوم العيد كانت المائدة تامة لا ينقصها شيء عن الأعوام السابقة، وذاك لأن أمي بدأت التحضير ليوم العيد بثلاثة أيام، أي ابتداء من يوم الخميس صباحا، معتمدة على المساعدة المالية الثانية التي أخذها والدي. وخلت الشقة من الطرُق، لم يزرنا أحد ولم نزر أحد، اعتمدنا على وسائل التواصل الاجتماعي، والتي عوضت كل زيارة عن قرب، وأبقنتا بعيدين عن كل فيروس غاشم.

نظرتُ من السطح ورأيت المدينة خاوية على عروشها، كانت -رغم الحجر- لا تخلو من المارة، والذين يقصدون جلب معيش أو عملا أو مداواة مرض، كأنها ما اكتظت يوما بالباحثين والعاملين واللاعبين واللاهين والركع السجود. رأيتها وهي فارغة حتى من الدكاكين والباعة المتجولين، ورجوتُ ذهاب كورونا دون رجعة، وعودة الناس إلى حياتهم، وبدت لنا أحسن حياة بعدما كنا نراها مليئة بالسأم والإيقاعات الرتبية.

بعد الفطور اتصلت أمي بأقاربها عبر الوسائل الاجتماعية المتاحة، وكذاك فعل أبي. سألا عن الأحباب وعن الأهل وجددا صلة الرحم عبر هذه الوسائل، والتي فضلها الناس في زماننا، لأنها بثمن بَخس دراهم معدودة، وجودتها عالية في الاتصال.

لم أجد أنا والأخوان ما نفعله بعد العصر، وصعدنا إلى السطح نلعب بكرة شبيهة بالبالون، من خلالها تذكرت أزماني في ملاعب الأحياء، وإن لعبتُ مع طفلين، إلا أنني تخيلتهما خصميين يصلحان للمنافسة، جريئا وراء الكرة، ولما مسنا التعب جلسنا على مقربة من عتبة السلم، وبدأنا نحكي عن أيامنا في المدرسة، والتي كانت تبدو أياما عادية، لكنها ليست كذلك، بل هي أيام الأُنس والمرح مع الأحبة. نسيثُ نفسي، وانقطع حبل المتابعة مع ياسر وبثينة، وسبحتُ في بحر التأمل، أتأمل كيف يصبح حالي في ثانوية ابن هشام الإعدادية إذا واصلت الاجتهاد. الموسم الدراسي المقبل سوف يشير إلي الجميع بالبنان، وسوف أكون تلميذا مجدا لم يعهد طريقته المثلى التلاميذ، وسوف أوقر أساتذتي وأحترم التلاميذ، وسوف أترك باب الهوان، وأعتنق الفضيلة،



وما رافقها من ليونة وعمل، وأنقطع عن رفقاء السوء، وأتابع مرافقة آدم، وأجره إلى الخير إن استطعت إلى ذلك سبيلا. وعليّ ألا أنسى كرة القدم، لأنها كل شيء في حياتي، وهي الراحة النفسية تنسيني الهم والحزن. لأن جمعت بين الدراسة والهواية، وجمعت بين العلم واللعب، وبين الدراية والرياضة، لأكونن الكريم المُكرم، ولأبلغن ما أريد.

أطلب النجاح فقط هذا العام، لكن في العام القادم سوف أرفع التحدي، وأوصل صوتي إلى كل من ظن أن الكسل يمضي مع صاحبه، ويستمر ولاؤه. أكيد أنني أضعت الكثير، لكنني عازم على الاستدراك، وهذا ليس مستحيلا، لا مستحيل في الحياة.

وأنا أتأمل -كأنني وحيد- أحسست أن يدا تدعوني حتى أسمع نداءها المستمر، وما كانت اليد إلا يد ياسر، والذي تنبه بفراسته لأمري، وطمأنني أنني سأكون من الناجحين

ما بك يا هذا؟ فيم تفكر؟ -

لا شيء يستوجب الاهتمام -

لا تقلق، سوف تكون من الناجحين. لا يهم المعدل، المهم أن تتجح، وفي الأعوام المقبلة تحسن -  
مستواك ونقطك.

وواصلت أختي:

اضحك يا أخي، سوف تتجح، ونحتفل بنجاحك، والنبوغ يأتي في قادم المواسم الدراسية -

شكرتهما على الاهتمام، وأدركت أنني كنت مبتعدا عن ملكين وحكيمين يفهمان ما يجول في البال. أنا حزين، لكن تفاهمي المكتشف مع أخوي أفرحني وأنساني الأحزان، وأخرجني من دوامة

أسبوع بعد العيد تفتح المقاهي والمطاعم أبوابها، لكن للطلب الخارجي فقط، ومع الالتزام بقواعد النظافة والسلامة الصحية. بدأت المقاهي والمطاعم العمل في التاسع والعشرين من ماي، واعتمدت كل الإجراءات الوقائية، وقللت العاملين ريثما ينتهي جحيم الوباء ولهيبه. وأقبل المغاربة على المقاهي والمطاعم، لأنها كانت ولا تزال أكثر من مجرد ماء وبن، وسكين وشوكة. وتفهموا من يروم تجنيبهم شر كوفيد-19، والتزموا ما أذاعته القنوات الرسمية

وبعد أسابيع بدأ إعلان النتائج، وكنت من الفرحين، نجحت بنقطة عشر درجات، هنأني الجميع، وخاصة الأسرة، والتي كانت متأكدة أنني سأتغير إلى الأحسن في الموسم الدراسي المقبل.

كنت فرحا أكثر من أي وقت مضى، وكنت حزينا، فرحت بالنجاح والصعود إلى السنة الثالثة، وحزنت بالنقطة، والتي لم تعجبني، وجعلتني أعقد العزم، وأواجه نفسي بنفسي. أدركت حقيقة مفادها أنني قادر على النجاح في دراستي، وفي حياتي، وأني أستطيع بلوغ المراد من هذه الحياة شريطة السير بخطة توصلني نحو الهدف، والذي يتأتى بالخطط، وتجنب العشوائية. وعلى فوق كل هذا أن أوصل مساري الرياضي، فإن لم يأتني بالعمل، سوف يجنبني المهالك.

يبقى همي الأكبر أن أتواصل مع أبي وأمي كي أفوز ببرهما، وأشرب من معين تجاربهما. إن كنت أتواصل مع أمي، وكان أكثر تواصلني معها توبيخ، فإن التواصل مع أبي كان غائبا، لأن أبي كان يتجنب الحديث معي نظرا لشغبي المتواصل، وكنت أظنه غاضبا من ممارستي لكرة القدم، لكن خاب ظني، فقد كان قلقا بسبب تعثري الدراسي. هو يريد تلميذا باحثا عن الذات، ولا يريد تلميذا لاعبا لاهيا، ومضيعا لدهره، لا يعارض أن ألعب الكرة، وأن أخرج رفقة صديقي آدم. كان من الذين خبروا الحياة وتعلموا منها، كان ملما بحوادث الدهر ونوائبه، كان يرى فشلي عندما كنت متعصبا لرأيي، وأرى الخلاص في كرة القدم. اليوم تغيرت نظرتي إلى الحياة، وأصبحت أكثر نضجا، لا أدري كيف تم ذلك، لكن أنا في غاية الكرم الشخصي، لأن يجمع إنسان بين الجميلين، أي بين دراسة ترضيه وترضي أهله، وبين رياضة ترضي جسمه، لهو غاية الكرم.

بهذا النجاح انحلت أساريري، ولا أدري بأي طريقة أصبحت أصاحب صديقين آخرين حاورتهما بعد رفع الحجر. كانا يكبراني سنا وتجربة، كان الأول طالبا في الدراسات الإسلامية، وكان الثاني يدرس في معهد التكنولوجيا التطبيقية، والذي يقابل المدرسة الابتدائية التعاون.

أهداني واحد من الصديقين كتاب الأيام لعميد الأدب العربي طه حسين، والكتاب سيرة ذاتية تترجم حياة هذا الكاتب الكبير. تعرفت عن قرب حياة هذا العلامة، ورأيت أنه لم ينل المنى هكذا، وأنه تعذب حتى أثبت ذاته. رأيت أن إثبات الذات لا يحتاج إلى السواعد بقدر ما يحتاج إلى إرادة الإرادة، وأن المصاعب التي تعترض طريقنا تزول بقوة الطموح والهمة العالية. فقد طه البصر في طفولته، كان عماء جزئيا، لكن المداواة التقليدية التي أصرت عليها أمه جعلته يفقد البصر كليا. درس أول الأمر في الكتاب، وبعده انتقل إلى الأزهر الشريف، ولم تعجبه دروسه، ليرحل صوب الجامعة المصرية سنة 1908م، وهناك بدأ عهدا أكاديميا جديدا -تلا دراسته العتيقة- وشاه بحصوله على الدكتوراه سنة 1914م، عن موضوع ذكرى أبي العلاء، ما جدد عهده بالخصام، واتهم بالخروج عن مبادئ الدين. انتقل إلى جامعة باريس وهناك حصل على الدكتوراه في موضوع الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون سنة 1918م، وكان إميل دوركايم وبوغليه من أشرفا على أطروحته.

تزوج فتاة فرنسية سويسرية، واسمها سوزان بريسو، وأنجبا أمانة ومؤنسا. كان لهذه الزوجة فضل كبير على العميد، بحيث قرأت عليه كثيرا مما كان يود قراءته، كما عرفته على طريقة برايل، وساعدته كي يقرأ مراجعه بنفسه، ويستفيد منها دون الحاجة إلى وسيط.

كتب طه في جميع الميادين المعرفية، وكان شديد التعصب للمنهج الغربي في كتاباته، وهذا خلف عددا من الخلافات الفكرية بينه وبين معاصريه من المثقفين، كما خلف خصومات لا تزال الكتب تحفظ أسبابها وموضوعاتها. وبعيدا عن أفكاره، وهل هي تستحق التسفيق أم تستحق الرثاء، يبقى طه حسين من الذين تستوجب الحياة الفكرية القراءة لهم. كان غزير الثقافة والفكر، ومحيطا باللسان العربي والفرنسي، قدم للمكتبة العربية كتباً لم يسلم بعضها من الجدل، ومنها: ...حديث الأربعاء، وفي الشعر الجاهلي، ودعاء الكروان، ومستقبل الثقافة في مصر

خلف كتاب الأيام انطباعا حسنا، أدركت قيمة الجد، والذي لا يتأتى بالأحلام، وعرفت أن مَنْ أراد العُلا سهر الليالي. صراحة غير الكتاب نظرتي إلى الدرس، وتعجبت كيف حقق طه أحلامه كلها مع أنه ضرير، ورأيت كيف تثمر أشجار مَنْ يداوم على الدرس، وكيف يصل إلى ما يريد بوسيلة واحدة.

-18-

يخرج مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية في مظاهرات، والتي انتشرت كالنار في الهشيم، وفي جميع الولايات. ترفض المظاهرات العنف والتمييز العرقي والكراهية التي يتعرض لها الأمريكيون من أصول إفريقية، والذين يعيشون في بلد طالما تغنى بالحرية والعدالة الاجتماعية، لكنها مجرد عناوين خفاقة في قمم براقية يأتي بعدها الظلم والجور والوحشية وقانون الغاب الذي ينتصر فيه القوي على الضعيف، وكأننا نشاهد وثائقياً تبثه قناة ناسيونال جيوغرافيك

أعمال عنف وتشدد هنا، ومظاهرات سلمية هناك، وصحافة تنتهك حرمتها في بلاد العم سام، وعلى المباشر أحيانا. تجدد الشرطة خناقها على كل مبدع وراء الكاميرا يود نقل رأيه ووجهة نظره من قلب أرض المسيحيين. الشرطة لا توقر هذا ولا ذاك، تعنف كل من أتى في الطريق، وإن أفصح عن مهنته من قبل أن تقربه، هي تتوعد كل صاحب فكرة

العواصم العالمية كانت في الموعد، وتظاهرت للسبب نفسه في أمريكا، والمظاهرات كانت سلمية، لكن ما يلفت النظر هو الجموع في ظل الوباء، هذا قد يزيد الطين بلة. يا ترى ما سبب هذه المظاهرات التي يتوعد بها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بإخراج الجيش، موجهها وجهه كل يوم للكاميرات العالمية من البيت الأبيض

سبب هذه المظاهرات في الولايات المتحدة الأمريكية هو موت المواطن الأمريكي وصاحب البشرة السمراء جورج فلويد على يد شرطي أمريكي أوقعه أرضاً وخنقه حتى أخرج روحه في مدينة مينيابوليس. ويرى المجتمع الدولي أن التعنيف بهذا الشكل لا يجوز مهما كان السبب الذي فعله فلويد، ودعا الشرطي إلى تعنيفه.

وجدت القنوات في الموضوع مادة دسمة أنست المشاهدين ما يتخبط فيه العالم من مأس بعدما فعل الكوفيد-19 ما لم تفعله الحروب التي شهدها العالم مجتمعة. كورونا تحطم الأرقام، وجارَ على الدول اقتصاد متدهور يقول الخبراء إنه يحتاج إلى سنتين حتى ينتعش في فرنسا، وقد يحتاج إلى أكثر من هذا في بلدان أخرى. وفي الوقت نفسه تسيح الشائعات على وسائل التواصل الاجتماعي، وتقول هذه المرة إن المساجد ستفتح يوم الرابع من يونيو، مما جعل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تتدخل وتنفي الشائعة. وهناك شائعة أخرى تقول إن الدوري المغربي سيلغى، وهذا جعل الجامعة المغربية تتدخل، وتقول إنها المؤسسة الوحيدة التي من شأنها التكلم في إلغاء الدوري من عدمه، وأكدت أنها تدرس ملف الدوري مع كل المتدخلين، وستكشف عن القرارات التي ستتخذها في الوقت المناسب.

الإحصائيات تؤكد إقبال المواطنين بشكل مفرط على شبكات التواصل، مما جعل شركات الاتصالات تنتعش انتعاشاً، وتعرف أرباحاً قياسية غير مسبوقة. الكل أصبح في حاجة ماسة لزيارة مواقع الأنترنت المختلفة، الشركات والتعاونيات والجمعيات والوكالات والمؤسسات الحكومية. أصبحت المؤسسات تحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى رقمنة خدماتها حتى تيسر على نفسها وعلى الزبون. وأسهم هذا الإقبال المتزايد في تفشي ظاهرة الشائعات التي بدأت تتغذى من التضليل وتزييف الحقائق.

القنوات بدأت تعود إلى رشدها وإلى أخبارها العادية، وأنستنا الكوفيد-19 الذي أودى بحياتنا النفسية، وأمراض نفوسنا قبل أن يمرض أجسامنا. وابتعاد القنوات عن أخبار كورونا سيعيد نفسياتنا إلى الحياة الطبيعية.

ما هي إلا أيام بل ساعات حتى عادت القنوات إلى أخبار الكوفيد-19 وفيروسه القاتل، وقد احتقر المغاربة في هذه المرحلة نتيجة لقرارات خاطئة كقرار الاحتفال بعيد الأضحى بعد انصرام يونيو وتمديد الطوارئ، وكان من الأجدي ترك الاحتفال بالعيد.

وأخيراً مضت عشرة أيام من يونيو، وعادت الحياة تدريجياً إلى شوارع الدار البيضاء. وبدأت الحياة تدب شيئاً فشيئاً، وبدأ الاقتصاد ينتعش بتدرج، وانطلق الاقتصاد من الشركات التي لها القدرة على العمل وفق نظام مهني صحي يحترم ما أقرته وزارة الصحة من توصيات جعلت

حياة المواطن فوق كل اقتصاد. ونلاحظ على مدار انطلاق حالة الطوارئ الصحية أن المغرب لا يزال يقدم صحة المغاربة على صحة الاقتصاد. هذا في وقت أعلنت فيه وزارة الصحة ووزارة الداخلية في بلاغ مشترك تمديد حالة الطوارئ لثلاثة أسابيع أخرى، أي إلى غاية العاشر من يوليو، وذلك حفاظا على المكتسبات التي حققتها البلاد في السيطرة على وباء كورونا، وتخفيف حدته. وصادق مجلس الحكومة في التاسع من يونيو على هذا التمديد تحضيراً للعودة إلى الحياة الطبيعية واستئناف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية بمجموع التراب الوطني. وتقرر تقسيم التراب الوطني إلى منطقة التخفيف الأولى، ومنطقة التخفيف الثانية، وتضم المنطقتان مجموعة من العمالات والأقاليم، وسوف يستغني الأفراد عن الرخصة الاستثنائية في المنطقة الأولى، وسيبقى العمل سارياً بالرخصة في المنطقة الثانية، لأن الوباء لا يزال يدق أبواب قاطنيها. وسيتم تصنيف العمالات والأقاليم أسبوعياً على أساس المعايير المحددة من طرف السلطات الصحية، ومن طرف لجان اليقظة والتتبع، ويترأسها الولاية والعمال، وتتكون من ممثلين عن وزارة الصحة والمصالح الخارجية للقطاعات الوزارية المعنية والمصالح الأمنية.

تم الشروع في تخفيف قيود الحجر الصحي -في ربوع التراب الوطني- باستئناف الأنشطة الاقتصادية، باستثناء المطاعم والمقاهي في عين المكان، والحمامات والمسارح وقاعات السينما. وخرج المواطنون دون الحاجة إلى رخصة التنقل، شريطة توفرهم على البطاقة الوطنية الإلكترونية، وشريطة التنقل داخل العمالة أو الإقليم الذي يقطنون فيه، وتحرك النقل العمومي مع استغلال نسبة خمسين بالمائة من طاقته الاستيعابية، واستقبلت صالونات الحلاقة والتجميل الزبناء، وفي حدود الخمسين بالمائة من طاقتها الاستيعابية، وفتحت الفضاءات العمومية والمنتزهات والحدائق، واستؤنفت الأنشطة الرياضية الفردية كالمشي وركوب الدراجات، مع الإبقاء على منع التجمعات والاجتماعات والأفراح، وحفلات الزواج والجنائز في المنطقة الأولى. أما المنطقة الثانية، فقد تم فيها العمل بالرخصة الاستثنائية للتنقل، وأغلقت المتاجر على الساعة الثامنة مساءً، واستؤنفت النقل العمومي الحضري باستغلال نسبة لا تتجاوز خمسين بالمائة من الطاقة الاستيعابية، ومنعت -كذلك- التجمعات والاجتماعات والأفراح، وحفلات الزواج، والجنائز.

ما إن اطمأن القوم، وأبانوا عن حنكة في التعامل مع كورونا حتى ظهرت الصاعقة، بؤرة وبائية بإقليم القنيطرة، وفي لالة ميمونة بالتحديد، وأصيب خمسمائة وتسعة وثلاثون شخصاً، وأغلبهم من هذه الجماعة القروية، وذلك يوم الجمعة 19 يونيو 2020م، وفيها تحالف الكوفيد مع رقمه المفضل. عجلت البؤرة بتدخل رجال السلطة في اليوم الموالي، وتحفز الإعلام الذي

قصد العاملات بالضيعة الفلاحية التي شهدت أكبر إصابة بالفيروس الخانق، لكن ما حدث زرع الرعب في النفوس، وزاد الشك بشأن الوباء، والذي زاد استفحالا في هذا اليوم. وفي اليوم الموالي سجلت مائتان وست وعشرون حالة، وأغلبها في جهة الرباط سلا القنيطرة، والمدعو أرباب شركاتها إلى أن يلتزموا المسؤولية مع المستخدمين العاملين في المقاولات. هذا الارتفاع بقي حتى بعد الأيام التي تلت هذا اليوم، ودائما نلاحظ صرخات الغيورين على الوطن تحذر وتحسس، وتندر أن الأيام أصعب، وأن القادم مُرعب، وأن ما يقع تشيب لهوله الولدان.

هذا هو المستجد مع بعض الخروقات، والتي كنت من أصحابها طبعاً، لأنه استحال أن أمضي أكثر من شهرين وما يزيد، وأن أحافظ على النهج العملي نفسه، وألا أرى آدم وهو قريب من مقر سكني. وكان للطيش وعدم الروية نصيب في هذه الخروقات، وكم لمت نفسي ووبختها على عدم الاكتراث هذا.

بقيت داخل المنزل إلى أجل غير مسمى، وأغرمت مشاهدة القنوات الإخبارية، والبرامج السياسية والثقافية. شاهدت القنوات تناقش وتحلل وقوف الرئيس الأمريكي ترامب في وجه مستشار الأمن القومي السابق جون بولتون لمنع نشر كتابه الذي يتحدث عن كثير من أخطاء الرئيس مثل طلبه ود الصين أثناء انتخاباته الرئاسية سنة 2016م، وعن بعض أسرار ترامب داخل البيت الأبيض، ويراها ترامب أنها أكثر من سرية، ويقول إن الكتاب مليء بالأكاذيب الوهمية، وجاء لتصفية الحسابات، وتشويه سمعته، لأنه كان سببا في عزل صاحبه من منصبه. ويحمل الكتاب اسم الغرفة التي شهدت الحدث يوم 23 يونيو، ويحمل متنا عن الرئيس، وتقول المحكمة الفيدرالية إن موضوعه يدخل ضمن حرية التعبير. وشاهدت الخبر المتعلق بسوريا، وأعني قانون قيصر، وهو قانون يعاقب تسعا وثلاثين شخصية موالية للرئيس السوري بشار الأسد، وشملت العقوبات حتى أقرب مقربي الرئيس مثل زوجته. ولا تشمل عقوبات قانون قيصر المساعدات الدولية نحو سوريا، وهي ترمي حسب وزير الخارجية الأمريكي مايك بومبيو إلى حماية الشعب السوري، وهي واحدة من حزمة عقوبات قادمة على بشار والموالين له. ويبدو أن هذه الضربة ليست على بشار لوحده، وإنما على حلفائه الروس ومن ذهب مذهبهم. وشاهدت غضب فرنسا على تركيا التي زار وفد رفيع المستوى منها ليبيا، ما جعل باريس تتفعل على هذه الزيارة، والتي تهدد مصالح فرنسا في البحر الأبيض المتوسط.

مصائب قوم عند قوم فوائد، الدول في حرب مع كورونا، وأخرى تجري نحو المصالح، ألا يمكن لهذا العالم أن يتبادل المنافع ويتضامن للعيش في سلام ووثام؟ ما أغرب هذا العالم الذي لم ينعم بالأمان من قبل! لن يبلغ الرغد في المستقبل، لأن المصالح تهدم التضامن، وتضرب التعاون.

ظهر لي الصيف مخالفا للصيف الماضي، أصبحت أعامل مثلما يعامل شقيقي، لم يعد هناك توبيخ ولا غضب. أصبح كل من في البيت يعاملني بلين، أو هكذا بدا لي، وحتى أبي الذي كان يتجنبني، ولا يتحدث أمامي، صار يهوى لقائي، ويحب أن يناقشني في مواضيع متفرقة، ويسر إلي بأسرار ماضية أو طموحات آتية. عرفت أن أبي طيب، وأنه يريد لي الخير، ويريدني مثل ياسر وبثينة المجدين في دراستهما، ورأيت بيتنا يصبح -تقريبا- كبيت المهندس، يعمه الهدوء والراحة، ويسوده التفاهم.

يقال إن المساجد ستستقبل المصلين في منتصف يوليو، وستستغني في البداية عن الصلوات الجُمع، وستشهد حملة تعقيم واسعة قبل أن يتوجه صوبها الأدميون، ودائما من أجل الحذر والحِيطَة من ذلك الذي غيّر عبادتنا وعمَلنا وتجارتنا، قد أقام الدنيا وأقدها، وبلغ دويلات لا تبلغها الخطوط الجوية أو الخطوط البحرية أو الطرق السيارة أو سكك الحديد.

وصل اليوم الموعد، فتحت المساجد أبوابها، واعتمدت التباعد الجسدي خلف الإمام، والمقياس الحراري وتعقيم الأيدي قبل الدخول. واصطحب المصلون سجاداتهم وأكياسا شخصية توضع فيها الأحذية، ولا تسلم عن إجبارية الكمامة. وهي مبادرة جميلة أخرى تضاف إلى الاحترافات، ما يضيف على العبادة لمسة السلامة، والتفكير في الآخر.

بدأت أعتاد التعديل الذي جرى على حياتي، وبعدها كنت أجالس أهل البيت لأكل وشرب، صرت أهوى مجالسة الوالد والوالدة والأخوين. وحافظت على صداقة آدم، لأنه ليس صديق سوء، ولأنه صديق رائع لا يؤذيني، ويقدم لي المساعدة المعنوية والمادية في بعض الأحيان، ولأنه صديق صدوق صادق الوعد منصف. وكم فرحت بنجاحه هو الآخر، ودعوت الله أن ندرس السنة الثالثة معا في قسم واحد رغم أن الأمر يبدو صعبا لكنه ليس بالمستحيل.

صِرْتُ مواظبا منذ رمضان على الصلاة، وصار لي أصحاب رغم قلتهم إلا أنهم أصدقاء نافعون يقدمون للمراء العون إن أصابته موجة، ويحملونه إلى الأمام إن أوقعته عثرة.

أقضي يومي ما بين قراءة ورياضة في البيت، وسمر مع الوالد أو الوالدة أو الأخ والأخت. وكان أغلب حديثي مع أفراد الأسرة عن المستجدات الاقتصادية والاجتماعية نتيجة انتشار كورونا، وبداية الانتصار عليه بالإرادة والعزيمة الوطنيتين.

المرحلة الثانية من التخفيف، وانتظرناها بفارغ الصبر إلى الرابع والعشرين من يونيو عند منتصف الليل. فتحت فيها المقاهي والمطاعم، والحمامات وقاعات الرياضة، والفضاءات السياحية الداخلية، وبدأت تقدم خدماتها للزبناء شريطة ألا تتجاوز نصف طاقتها الاستيعابية،

واستأنفت الأنشطة التجارية والأسواق أعمالها، وعادت عجلة النقل العمومي السككي والطريقي بين المُدن والرحلات الجوية الداخلية إلى الدوران، وامتألت الشواطئ بالإنس بعدما كانت في عطة طول مدة الحجر الصحي. ولا زالت السلطات توصي بالترام التباعد الاجتماعي، وقواعد النظافة والسلامة.

المكتب المديرى للاتحاد المغربى لكرة القدم قرر أن يستأنف أجواء الدورى يوم الرابع والعشرين يوليوز، على أن تتطلق المقابلات المتبقية من الدورى فى الثامن من يوليوز، وتختتم يوم الثالث عشر من شتنبر. وتجرى المقابلات المؤجلة والمتبقية دون جمهور، مع التزام الأندية بروتوكول صحى لتجنب العدوى، تمثل فى إخضاع مكونات الفرق لفحوصات طبية، واستئناف تداريب فردية لمدة عشرة أيام، تتبعها تداريب جماعية لمدة عشرين يوما، وإجراء... فحوصات للاعبين

هكذا عادت الحياة إلى طبيعتها شيئا ما، وخرج البيضاءويون زرافات ووحدانا، وكأنهم كانوا بحاجة لهذا التخفيف. وفضل الكثيرون التريث، وحافظوا على الإجراءات نفسها التى التزموها قبل التخفيف لاسيما أن الوباء فى هذا الزمن بالذات يصل إلى أرقام قياسية. وبالموازاة مع هذه الحياة شبه العادية رحل الفيروس التاجى صوب الشركات والمقاولات والمصانع والمعامل، وبات يشتهي هذه الأماكن، ما أدى إلى ظهور بُور مهنية، وهى القشة التى قصمت ظهر البعير. بعض المقاولات انسجمت مع الأوضاع وعملت بالبروتوكول الصحى الذى أوصت به الحكومة، والبعض الآخر لم يقدر على دخول التحدي، وبقي ينتظر إلى أجل غير مسمى، فلربما يأخذ الفيروس حقايبه ويرحل إلى غير رجعة، رغم أن هذا قد يكون تمنيا بعيد المنال، لأن المنظمات الدولية تحذر من موجة فيروسية ثانية

الفريق الإنجليزى ليفربول يكتسح فى الدورة الحادية والثلاثين من الدورى الإنجليزى الممتاز كريستال بالاس، وبرباعية نظيفة قربته من نيل اللقب. وتكتمل فرحة مدينة ليفربول برسم الدورة نفسها، بعدما تغلب فريق تشيلسى على وصيف الدورى مانشيستر يونايتد بهدفين. وهذه النتيجة حسمت اللقب لصالح ليفربول

ليفربول كان بحاجة لنيل لقب الدورى الذى تعطش له الأنصار بعد ثلاثين سنة من الانتظار، ويعود آخر لقب للدورى إلى 1990م. واكتفى ليفربول الموسم الماضى بلقب دورى الأبطال، وكان قريبا من الفوز بلقب الدورى الذى ذهب لمانشيستر يونايتد، ليتأجل الفوز بالدورى إلى هذا الموسم.



يورغن كلوب مدرب الفريق الأحمر عبّر هو ولاعبوه عن فرح لا نظير له، وما زادتهم مدة ثلاثين عاما -انتظرتها المدينة- إلا سرورا. وبدأ الأنصار العرب يمتطرون صلاحا بكل قول حسن معتبرين إياه من الأبطال الذين حققوا لفريق ليفربول مجده المحلي والقاري والعالمي.

-19-

المناسبة هي امتحانات البكالوريا بداية من يوليو، وأنا أبحث كالعادة إذا بي أصادف نصا كتبه أستاذ رأى امتحان الثانية بكالوريا رأي العَيْن، فلنتمعن ما خط بيانه: "ما أجمل الدنيا وما أروعها مع أمثال هؤلاء المترشحين، ومع نظرائهم، كيف ارتقوا في أعين الحاضرين وبشهادة كل المتدخلين في إجراء الامتحان الوطني لنيل شهادة البكالوريا دورة يوليو العادية 2020؟ صنعوا ما كنا نظنه ضربا من المستحيل، بلغوا الغاية، علمونا مما حباهم الله، وأيقظوا الأحاسيس الفياضة فينا، أنسونا المشاكل، وأدخلونا إلى عالم المثل ولا أبالغ

وهؤلاء كل منهم أمة تخاطب المجد، فهل درسوا في مدارسنا؟ وهل تلقوا تعليمهم بواسطة المناهج نفسها التي تخرجها الوزارة؟ هل مشوا في أسواق هذا البلد الأمين وأكلوا وشربوا من خيراته؟

كيف تعلمنا عنهم في ثلاثة أيام ما نعلمهم إياه في اثنتي عشرة سنة، وفي ثلاثة أسلاك دراسية؟ كيف تناسوا ما هم فيه من تبرم ضم العالم أجمع؟ وكيف يكون سلوكهم قارب منتهى الكمال؟

الخطوب أهلكت قطاع التعليم، لكن عواصفها وعودها جانبت هؤلاء، وتكسرت، لأنها وجدت شبانا وشابات اكتسبوا مناعة، فلا يؤثر الزيف الذائع في تصرفاتهم ولا أخلاقهم

أنتم أهل كرم وعزم، أنتم من يمثل المدرسة المغربية بحق، ويشفي خاطر، ويبرد الأنفس، أنتم قادة هذا الدهر وأسياده، أنتم من أكرمتونا وبعثتم لنا زمنا نسمع عنه ولم نشهده، وأشعرتونا بقيمة الأستاذ في عمله، وبين طلابه، فشكرا لكم، وشكرا لكم يا من أثبت أن حاتما -مضرب المثل في الكرم في الثقافة العربية- لم يمت، وترك أحفاده فوق البسيطة ينشرون الفضائل.

كانت هذه الوقائع في مركز امتحان البكالوريا أنس بن مالك، وهو تابع للمديرية الإقليمية لعمالة الحي الحسني، أكاديمية الدار البيضاء-سطات. ويقع المركز في الملتقى الطرقي المؤدي لحي السلام، وحي الألفة، وعمالة الحي الحسني، وملتقى الطرق عزبان. ويوجد وسط حي أكبر اسمه الحي الحسني يوجد في المدينة الاقتصادية للمملكة، وعلى الساحل على مقربة من أكبر مركز تجاري.

من اليوم الأول للامتحان، تلج المركز، وتجده معبأ وعلى قدم وساق لتقديم الخدمات الاحترافية للوقاية من الوباء التاجي المنتشر. تقصد مساحات أحذية، وتأخذ كمامة، ومُعقما لكل

داخل إلى هذي المؤسسة، وواقيا بلاستيكيًا شفافًا، وقفازات. تدخل الكتابة، وما هي إلا لحظات حتى تتعرف القاعة التي سوف تقضي فيها سويغات حتمها الواجب، ولا أريد أن أقول المراقبة، لأن أمثال هؤلاء لا يُراقبون. تتعرف القاعة وتترجل لبلوغها ودخولها، وتصدم بأن المترشحين الذين ينتمون إلى مسلك العلوم الرياضية- قد سبقوك بما يقارب ربع الساعة، وهم يتذكرون - بينهم منسيا، أو يناقشون مخفيا، أو يفتحون طروسا صائوها من الضياع، فكانت لهم خير أنيس وجليس. تدخل وتسلم ويردون السلام في أدب ولباقة، ويواصلون ما هم فيه من تفاهم وتناغم، لا يرمونك بنظرة سوء، ولا يحاولون إزعاجك، ولا هم يبتغون مساهلتك في الحراسة، وكأنهم اتفقوا بينهم أن المراقب جاء من أجل واجب وكفى، لا ينزعجون من أحد من المتدخلين في الإجراء ولو دخل القاعة أربعة متدخلين أو أكثر، لا يرتعدون لدخول ملاحظ ورئيس مركز أو غيرهما. سنبالهم على الأوراق مُنحنية، وأذهانهم للعلا مُرتقية، وجميعهم في عمل دؤوب يخافون ضياع دقيقة، يخاطبون السؤال، ونحو مجرة التحليل ارتقوا

أحد المترشحين في مادة الفيزياء والكيمياء ناداني في لباقة وظرافة قائلا: هل من الممكن أن أخرج قليلا فأنا أشعر بالدوار؟ قلت له: هذا من حقا. ناديتُ المسؤول عن ذلك الجناح حتى يصطحبه، وخرج المترشح وبعد دقائق عاد، واصل تأمله في الأسئلة، ونحن لا ندري ما يجري معه، لأننا نتجنب النظر إلى أوراق التحرير. وبعد مرور ساعتين ونصف تحديدا، أراد أن يغادر، وحسبناه أنهى عمله، لأرى بعدها المراقبة تطلب منه العودة إلى مقعده، وأخبرتني أنه اكتفى بالإجابة عن أسئلة معدودة، رفض العودة، وقال لي في ظرافة مرة أخرى: اختلطت علي الأمور. قلت له: اخرج مرة أخرى قليلا لعل الأمر يزول، ما زالت هناك ساعة ونصف من توقيت الإجراء. أصر على المغادرة، وتحية له، لأنه لم يطلب من أحد شيئا، وتحية لأصحابه الذين واصلوا العمل دون أن يمسه فضول معرفة ما يجري مع صديقهم. وهذا آخر في مادة الفلسفة، وبعد اقتراب ساعة ونصف من الوقت المنصرم، قمتُ من على الكرسي أتمشى بين الصفوف غير أبه لأوراق المترشحين رغم حبي الشديد لمادة الفلسفة ورغم تمكني منها، ولا أدري كيف وقعت عينا على ورق تلميذ يُدون مقاله، لكنه يسطر -فوق ما كتبه- بالقلم الحبر أصفر أو أخضر أو ما شابهه، قلت له في لين: هذه علامات إيحائية وربما ألغت ورقتك، ونلت الصفر في المادة. ناديتُ المسؤول عن الجناح، وأكد له أنها علامات وعليه إعادة التحرير في ورق آخر، لم يقتنع المترشح وواصل العمل، خرج المسؤول عن الجناح وعاد وطلب منه إعادة التحرير، ومن جديد لم يقتنع، ما جعل الرجل يغادر مستقما معه رئيس المركز، والذي بدوره هدا من روع الفتى، وأكد له أنها علامات، وعليه إعادة التحرير، ليؤكد المترشح: تتقضي المناقشة والتركيب، والوقت المتبقي وجيز لا يكفي لي لكل هذا. مضت عشر دقائق بالتمام والفتى في حيرة من أمره، ليقتنع في النهاية أن الجميع تدخل لصالحه لا ضده، ما جعله يسرع في التدوين في ورق غير الذي بدأه، والأهم أنه أنهى وغادر مرتاحا في النهاية، والأفضل أن باقي المترشحين يحنون على أوراقهم غير مكترئين بما يجري داخل القاعة

ربما تقول إنني أبالغ أو أزيد في الإطراء، لكن هذا ما جرى، وهو حقيقة لا خيال، وأسأل من حضر، وربما تقول إن باقي المسالك التعليمية تضم أقوم من هؤلاء في السلوك، أقول معك

حق إن تحدثنا عن الأفراد، لكننا نتكلم عن جماعة، ونتكلم عن فريق، وعن كوكبة، وعن مجرة، وعن فضلاء سُقوا من معين واحد، وعزفوا بلحن واحد، وعلى كمان واحد

وانحدر المُشرفون من ثانويات تأهيلية عمومية ومجموعات مدارس خصوصية، وانتسبوا إلى ابن الهيثم، وابن الياسمين، وابن حزم، وطارق بن زياد، وعمرو بن العاص، والمصباح، وأزهار الرياض، وسناء، ولامارتين... وهذه مؤسسات تكون بهؤلاء قامت بالواجب، وضربت عصفورين بحجر، علّمت وربّت رجالا ونساءً

ها هم الرجال الواضحو الحسب، وها هم المخترعون المبتكرون يملؤون المركز وغدا يملؤون غيره فضلا وأدبا، ويعلنون أنهم أفضل خلقا ونسبا

شكرا لجميع المتدخلين في الإجراء، ولمثل هؤلاء فاعملوا وجدوا، وشكرا حُماة الغد المأمول وشباب المغرب المشمول، أضأتم كالجواهر بنورها الخاص، وكالعسجد ذهب الأجسام حتى زاد الإحساس

هذه حقيقة، انشرها أخي الغالي حتى تكون لنا ولغيرنا وللمترشحين أجمعين عِظة تنسج على "منوالها الأفواج، إنها درس في قمة الوطنية

تجاوز الصيف نصفه، واقترب عيد الأضحى، وقبله بيومين، وبمناسبة تربيع الملك محمد السادس على عرش المغرب، وحلول الذكرى الواحدة بعد العشرين، خطب الملك في المغاربة، وفي سياق صعب يمر منه العالم. توجه الملك بالشكر لكل من ساهم في مواجهة الفيروس الذي حلّ بديارنا كما حلّ بديار الغير، واعتز بالتجاوب الإيجابي الذي أبان عنه المغاربة ومختلف القوى الوطنية لمواجهة العدو غير المرئي، وذكر على ضرورة مواصلة الجهود حتى نتمكن من التخفيف من تداعيات الجائحة إذا جاءت ثانية، وأمر بإنشاء صندوق الاستثمار الإستراتيجي، والذي سيدعم الأنشطة الإنتاجية والمشاريع الاستثمارية الكبرى في القطاع العام والخاص، ولإنجاح هذه العملية دعا الحكومة والفاعلين إلى الانخراط فيها، ومواجهة الاختلالات الهيكلية التي يتخبط فيها القطاع العام، ولهذه الغاية أمر بإحداث الوكالة الوطنية للتدبير الإستراتيجي، والتي ستواكب أداء المؤسسات العمومية، واعتبر أن الوقت حان لتعميم التغطية الاجتماعية -تدرجيا- على كل المغاربة خلال السنوات الخمس المقبلة وابتداءً من يناير حتى يُستأمن المواطنون على صحتهم وأرزاقهم

إن ما أتى به الملك يحتاج -طبعاً- إلى تضافر جهود الجميع، وإلى التضحية والتأزر كي يبقى المغاربة في الظرفية الحالية على كل شفة ولسان

وبدأت أسرتنا تستعد مثل جميع الأسر لاستقبال العيد. ولأن الأسرة لازالت تجر تداعيات وباء كورونا وجد أبي صعوبة لشراء خروف العيد، لكنه لم يستسلم حتى اشترى خروفا لا بالصغير ولا بالكبير، جاء بخروف بين بين، ويوم اشتراه على بعد يومين من العيد وقاده إلى سطح العمارة كنا في فرح كبير، أطعمناه وسقيناه، وكنا نقضي غالبية الوقت على مقربة منه، نجتمع ثلاثتنا في ركن من أركان السطح ولا ننزل إلا لتناول أكل أو شرب ثم نعود لأن والديّ كانا يخافان على الخروف من كل مكروه ككل سكان المدينة، والذين يببقون في قلق على الخرفان إلى أن تذبح وتسلخ وتعلق.

صادف العيد الجمعة، صلينا صلاة العيد في المنزل، وقمنا لتناول الفطور، وصعدنا إلى السطح لنجد بعض أرباب الأسر القاطنة تنتظر إلى أن يكتمل الفريق لذبح أضاحي العيد. تعاون الجميع -كما العادة- لذبح الأضاحي، وذلك في جو من المرح. وخلق الرجال في هذا الصباح المشرق جوا حيويا فكاها أنسى الجميع ما هم فيه من هموم نفسية واجتماعية واقتصادية.

خرجتُ لا ألوي على شيء، وأقصد منزل المهندس، والذي رأيتُه في باب العمارة. سلمت عليه، وسألني عن الأهل والظروف وأحوال الأسرة، وكان يقصد الأحوال المادية، لأنه علم أن ظروفنا صعبة، ويسد أبي حاجات الأسرة بصعوبة. ناديتُ الابن، وهنا كانت الفرصة مواتية كي أنزود من نصائح المهندس، وكانت في أغلبها تحسيسية بمخاطر الفيروس، والذي أصر أن يرافقنا حتى بعد التخفيف

احذر يا ابني، لا يغرنك التخفيف. الفيروس ما يزال يطوف في الأرجاء، والتخفيف ما هو إلا - تخفيف على الناس، وتخفيف على الاقتصاد. الناس انزعجت وتدهورت نفسيات الكبار قبل الفراخ، والاقتصاد مال إلى الغروب، ولا بد من إعادة توازنه

أعرف، سوف أبقى دائما على تباعدي الاجتماعي، فهو يحفظني ويحفظ غيري -

أحسنت، هكذا يكون التأدب داخل المجتمع. مبارك عليك النجاح -

بارك الله فيك، ومبارك على فارسكم أيضا -

مبارك عليكما معا -

وما هي إلا دقائق حتى نزل الصديق ورأيتُه أمامي وقد اكتسى ببشرة ثلجية، وذلك لأنه لم يعد يبرح شقتهم، واكتفى بالشقة فضاء للعب واللهو والترفيه. كان يحدث أبوي، ويلهو مع أخته. غادرنا المكان كي نجول في الأحياء المجاورة، ونلتقط بعض الدفء. ذهبنا إلى حديقة طريق

أزمور، أخذنا مكانا على كرسي شاغر كان ينتظر قدومنا ويدعوننا، وهنا أدرك أن الجماد بدوره قد اشتاق إلى بني الإنسان. تحدثنا في مواضيع شتى، وكان الجزء الأكبر منها متعلقا بالدوريات الأوروبية وفوز ليفربول باللقب بعد غياب

أسابيع ثم وصلنا إلى مرحلة التخفيف الثالثة، والتي رافقها ارتفاع مخيف في عدد الإصابات بالفيروس الذي ملأ الدنيا. وأيام قبل عيد الأضحى تقرر وزارة الصحة ووزارة الداخلية -في بلاغ مشترك- وقف التنقل من وإلى بعض المدن المغربية، ومنها الدار البيضاء، وهذا جعل المواطن يسارع ساعات قبل الإغلاق إلى المحطات الطرقية، ومحطات السكك الحديدية، ما أربك حركة السير، وجعل العرض أقل من الطلب، وجعل النقل السري يستغل الوضع، ما جعل تذكرة العودة إلى الديار أعلى من المعتاد بمرات، وجعل المجرمين يتربصون الطرقات، ويوقعون بالمسافرين الذين لا هم لهم إلا الوصول. نتجت خسائر في البدن والمال، أرواح أزهقت، وسيارات تفحمت، وخرفان رحلت قبل أوانها، ومرة أخرى يسجل المغرب هذا اليوم في كتاب المآسي.

الحكومة تنزل عدة إجراءات احترازية على عمالتي طنجة أصيلة وفاس حفاظا على سلامة المواطنين والمواطنات، وذلك كرد فعل على ما شهدته العمالتان من ارتفاع في نسبة الإصابة بكورونا. وتمثلت الإجراءات في التوفر على رخصة استثنائية للتنقل من وإلى المدينتين وضواحيهما، وإغلاق الحوانيت والمحلات التجارية والمقاهي على العاشرة مساء، والمطاعم على الساعة الحادية عشرة، وإغلاق الشواطئ والفضاءات العمومية والقاعات الرياضية والملاعب، ومنع كل أشكال التجمعات، وخفض الطاقة الاستيعابية لوسائل النقل العمومي إلى خمسين بالمائة. وشدد ممثلو السلطة الرقابة على الأحياء التي عرفت انتشارا كبيرا في عدد الإصابات، حتى يتمكنوا من ردع الفيروس المسعور في الآونة الأخيرة.

وهذه القرارات إيجابية اجتماعيا رغم أنها من الناحية النفسية صعبة، إذ تحتاج نكرانا للذات وتضحية بالعادات الفردية ودفاعا جماعيا عن الأنفس كي نخرج من هذه الأزمة الكونية بخسائر دنيا.

الذكرى السابعة والستون على ثورة الملك والشعب، يخطب الملك في شعبه، وملأ الوباء أسطر الخطاب، ويبدو أن حُب الظهور -لدى الأفراد- يقصم الظهور، وجعل الشعب يتجرع صنيعه الخاطيء وتعامله الموحش والضارب في الخلل. يستحضر الملك قيم المغاربة التضامنية، ويذكر بالعمل الجماعي، وتجنب التراخي، حتى نخرج من الموج المتلاطم. وبينه الغافلين بوجود الكوفيد-19، ويدعو إلى الرزانة العملية، وإلا سنواجه حجرا صحيا جماعيا بآثاره

النفسية والاجتماعية والاقتصادية، وتشديداً أكثر صرامة. كلم الملك شعبه بلغة تقريرية وبصراحة تبتعد عن الزخرف حتى يفهم الكل ما يرومه التخفيف، والذي فهم خطأ، وتجاوز المغرب فيه الصواب.

رأيتُ من الواجب أن أزور أبي في المحل الذي يعمل فيه في السوق البلدي، والذي يتوسط الحي الحسني. رأيتُ السوق أول مرة بعد تخفيف الحَجْر في ثوب لم أعهدُه به من قبل، رأيتُ السوق قد شهد بعض الإصلاحات في جميع أزقته دون تمييز، وصارت الأرضية من الزليج الموحد الذي أضفى على المكان جمالا، وصار السقف من القصدير الجديد. المحلات اتسعت، ونالت احتراماً من قبل الزوار والمُشترين، ولا بد أن أذكر بفترة الحجر التي استغلها السوق لإصلاح نفسه، وظهر هذا بجلاء، لأن السوق كان كما كان، لكن بعد الحجر أصبح بهذا الشكل الحسن.

يتكون السوق من عدة فضاءات أو أقسام، وبعضها للملابس الجاهزة أو الأحذية، وبعضها مخصص للجزارين وبائعي الدجاج، وبعضها لبائعي التوابل، وتوسط السوق بائعو السمك. وينتشر على جانب دكاكين السوق الباعة المتجولون، والذين نثروا بضائعهم على الأرض، وتصايحوا لتحفيز الناس بغية الإقبال على سلعهم، والتي في غالبها سلع موجهة لأصحاب الدخل المحدود.

وقام على بعد خطوات من السوق أعرق مقهى في الحي، ونال من الشهرة ما جعله علامة لبعض القادمين من بعيد. واسم المقهى تافوكت، ووجدناه منذ أن ولدنا في هذا الحي، قامت بين جنباته حديقة عمومية لقيتُ ما لقيتُ من الإهمال وعدم الصيانة، وعشبتها يتعرض بعد كل إصلاح إلى التلف، ورغم أنها تملك أبواباً، إلا أنك تستطيع أن تدخلها من كل جانب. وتقابل تافوكت دار الشباب، والتي تستقبل جمعيات الرياضة والثقافة.

تافوكت على شكل فضاء دائري يملك سطحاً خصص أيضاً كطابقه السفلي لزوار المقهى. وصفّ على مقربة منه بعض الأفارقة منتوجاتهم يبيعون، وأغلبهم من الذين جاؤوا المغرب باعتباره نقطة عبور إلى أوروبا، لكنهم اضطروا للمكوث فيه، ووجدوا فيه الملاذ الآمن، وغالبيتهم سَووا وضعيتهم الاجتماعية.

زرتُ الأب في محله، وكان يبيع الملابس الداخلية، وكَمْ فرحَ لأن بضاعته لم تصب بسوء بعد الحجر. وكان بعض رفاقه تسبب لهم الحجر في خسائر مادية كبيرة، وخاصة من يتاجرون في الملابس الجاهزة، والتي تعرضت للرطوبة، وضاعتْ بعض معالم الجودة منها، وأضحَتْ لا تسر الناظرين، فكيف تسر المُشترين؟

كان المحل على شكل مستطيل بطول أربعة أمتار ونصف، وعرض مترين، تتقدمه طاولة عرضت فوقها الملابس الداخلية مثل القمصان الرقيقة والسراويل القصيرة والجوارب، وعلى جنباته رفوف مثبتة بإحكام، وعليها علقت ملابس معروضة... وترك الأب ممرا جانبيا يدخل ويخرج منه، وجعل ركنًا لتخزين البضاعة. ووضع تلفازا مصفحا في الركن المقابل لركن الممر، جعله في مستوى لا يؤدي عنق المتفرج ولا يضر بعيونه.

ما إن رأني حتى فتح عن ابتسامة، ولطالما زرته في الماضي، لكن لم يكن فرحه مثل هذا الفرح. إنه فرح، لأنه قد رأني في الآونة الأخيرة كما كان يشتهي. يراني أصلي وأقرأ وأجد في طلب المعالي، وطالما أنا هكذا، فالأب مسرور لا يكدر عيشه إلا طيشي. أدخلني حيث يجلس وراء الطاولة وطلب شايًا، وهذه عادة من يزور في السوق، لأنها تعبر عن الترحيب. شربت الشاي، ودارت معه بعض الأحاديث، وأغلبها عن وضع الأسرة المادي، وهنا لاحظت أن الأب أصبح يبثني شكواه، ويسر لي بعض الأسرار عن عمله والبيت

لم تكن هذه المرة الأخيرة التي أزور فيها الأب، بل صرت أتردد على السوق والمحل، لأن الدراسة توقفت، ونحن في فصل صيف وراحة، ولأن المباريات في ملعب الشجاع متوقفة، مما جعلني أجعل زيارة الوالد في قائمة برنامجي اليومي

ثقة الوالد اتضحت لما بات يتركني أحرص المحل بعدما كان يتركه مفتوحًا، ويوصي بعض أصحابه عليه، ويتجه إلى مسجد السوق للصلاة أو يتجه إلى البيت للغذاء، وكان قليلا ما يزور البيت. وجد الأب في تكليفي على المحل العون والسند والراحة، لأنه كان يتعب، وعلى الخصوص لما يحضر سلعة جديدة، إذ كان عليه أن يخرج في الثالثة أو الرابعة صباحًا لإحضار خلف لما باعه، وعليه ألا يزور البيت، لأنه مطالب نهارًا بفتح المحل، وإلا ضيع رزق يومه ورزق أبنائه، ومصاريف المحل لا ترحم، فهناك مصاريف الكراء، وفاتورة الكهرباء، وواجب الجمعية التي تعمل أعمالًا اجتماعية واقتصادية تعود بالنفع على السوق، وواجب الحارس الليلي المتواجد بالسوق.

الأم كانت معجبة لإعانتني أبي في فترات مختلفة، وقد خففت عنه عبء العمل اليومي:  
المتعجب:

ها قد أصبحت كما أردناك، ذهب الطيش، ورحل الكسل -

إذا لم أعد كما ترين في سن أربع عشرة سنة متى أعود؟ -

معك حق، إذا وصلت إلى سن العشرين وما فوقها، ربما قد يضيع مستقبلك كما ضاع مستقبل -  
عديد من الشباب.

إن شاء الله سوف ترين ما يفرحك ويفرح الوالد، لقد ولى زمن الصبا -

هذا ما نريده -

لهذا نشرت أمري لمعارفنا؟ -

لا تخف يا رجل، أنا فرحة بك فقط، وفوق هذا لا أخبر إلا المقربين، والذين يريدون لك الخير -

!من كان ينتظر أقول صعقاتك؟ -

تنبتهت أمي بسرعة إلى ما أود التعبير عنه، وقهقهت، لأنها علمت أنني أشير إلى توبيخها  
لي، والذي رحل ولم يعد له وجود يذكر

وجدت في محل أبي شيئاً آخر لا يملكه الإنسان في جنبات الملاعب، تعرفت كيف يحصل  
المُعيل على العُملة، ومن أين يحصل على الدرهم بعد كدّ وتعب شديدين. تعرفت الجديد الذي لا  
يتعلمه المرء من الكتب، ويتعلمه بالممارسة في الحياة. حفظت سحنات البشر، وتعلمت كيف  
أبيع السلعة، ولمن أبيعها، وكان أبي يرشدني في هذا منطلقاً من تجربته الواسعة في هذا الميدان  
الفسيح بحره. كان يستغرق مع هذا، وقد لا يمضي في الكلام مع زبون آخر، ولما استفسرت عن  
الأمر، كان يوضح

كلمت هذا كثيراً، لأنني علمت أنه سيشتري السلعة، وأعرضت عن ذلك، لأنه يسأل فقط، ولن -  
يشترى شيئاً، وسيتعبنى بكثرة الأسئلة دون جدوى

وأيقنت مع مرور الأيام بين رفوف المحل وطاولته أن ملاحظاته الدقيقة كانت في محلها،  
وأن بعض الناس يتعبونك لا غير، وأن بعضاً منهم يحتاجون إلى المساعدة

صراحة أعطاني المحل تجربة فريدة، وتعلمت فيه أن الدرس أسهل من متاعب الحياة، وأن  
العلم يقود إلى كل فضل وصلاح، ويسعى بك إلى كل أفق ونجاح. ما أيسر الدرس والعلم إذا  
عاش المرء العسر وقضى حياته في عنق الزجاجة يريد أن يبلغ الشيء وما هو ببالغه ولا مدرك  
!أيسر طريق إليه

الحي الحسنى البهي المنظر ما بين ليلة وضحاها، يا له من مشهد يوم عظيم ولم أَلحظ هذا،  
ماذا جرى يا ترى حتى انفتح المشهد وصار السائح يجد المتعة في سيره؟ السكان الغيرون



على الحي أعجبوا بالمبادرة، فقد نزلت بردا وسلاما على الساكنة، ونزلت كالصاعقة على محتلي الملك العمومي. وجد مُحتلو الملك العمومي أنفسهم أمام قرار السلطات، ورضخوا للأمر عن طيب خاطر أو عن مضض، وغيروا مساحة فضاءاتهم التي كانت متسعة على حساب مسالك المارة والعابرين.

الفضاءات تحررت، والمقاهي والمطاعم والدكاكين تقلصت وعادت إلى أمتارها القانونية، وكانت فيما مضى تزعج كل عابر، وتؤذي كل سالك، ولا تعير اهتماما لأحد، وكل همها هو الجانب الاقتصادي غير منتبهة للأحزان التي تسببها للمواطنين والمواطنات. المقاهي وغيرها تضع كراسيها على حافة الرصيف، وبعض روادها ينفثون دخان سجائرهم على المواطنين، وربما قذفوا العابرات اللواتي لا تجدنَ طريقا آخر بالفاحش من القول والكلام البذيء.

هذا العمل لا ينبغي أن يزعج أحدا، لأنه عين الفكرة السديدة، وينبغي أن يفرح أصحاب المحلات قبل غيرهم، لأنه يمنح فضاءاتهم منظرا أجمل، ويحسن المشهد، ويكسو الحي بكساء الجلال، لاسيما إذا استحضر الزائر الموقع الإستراتيجي للحي، والذي يحاذي البحر، ويوجد على مقربة من شاطئ عين الذئاب، وعلى بعد دقائق من أكبر مركز تجاري في المغرب.

أبي أيضا كان من مُستغلي بعض من الزقاق، لكن لما لمعت الفكرة في ذهنه رحب بها، وتراجع عن استغلال ذلك المكان من الزقاق، ومشى يحث صحبه على ذلك بلطف قبل أن تتولاهم العَرَامات.

-20-

عادت الأجواء الاجتماعية والاقتصادية إلى عاداتها نسييا، ومددت حالة الطوارئ، وبدأ الموسم الدراسي 2020-2021، والكوفيد-19 يقطف الرؤوس التي أينعت وحن قطفها، وإنه لصاحبها. خير أولياء أمورنا بين تعليمنا الحضوري أو تعليمنا عن بعد، وأجل الامتحان الجهوي للأولى بكالوريا إلى بداية أكتوبر، وكان مقررا في أول شتنبر. سجلني الأب في السنة الثالثة، وبدأنا تعليمنا عن بعد في عمالة مقاطعة الحي الحسني على غرار عمالات من تراينا تعرف جرة فيروسية، وحمقا تاجيا.

كنتُ مغرما بهذه الأيام الأولى من كل موسم دراسي، كنت أهواها، وأظهر فيها بطولتي، معتقدا أنني بطل الأبطال، وظانا أنها ستجعل التلاميذ ينظرون إلي كأني عنتره بن شداد. اتضح لي أن شجاعتي ما هي إلا تحطيم لمقدرتي على الإبداع، وهذه الحقيقة تقدمت بي إلى الأمام، وكنتُ أول الملتحقين بقاعات الدرس التي ما انفكت ترحب بي، وتفتح لي عن بسمات

انطلق الموسم الدراسي في السابع شنتبر، وما هي إلا أيام حتى استقل التلاميذ الحافلة التي ستمضي بنا إلى نهاية الموسم. وما انطلقنا حتى أريث الكل مجهودي وصبري في طلب العلم، وثلث التشجيع من طرف أساتذتي، وعلى رأسهم أستاذ العربية الشاب، وفرحت في البداية ببقياه، لأنني سأدرس على يديه.

لم يجمعني القسّم بآدم، لكن لم نحزن، لأننا نلتقي كثيرا، سواء في الحي أو ملعب الشعاع الذي واصلت فيه ممارسة هوايتي المفضلة، وتغيرت نظرتي إليها، لم أعد أنظر إليها كأنها المستقبل، وإنما رأيتها كممارسة تتعد بي عن كل ظلم لنفسي.

أمضينا أياما في التقويم التشخيصي، وكان ينهجه الأساتذة بداية كل موسم دراسي غاية أن يقيموا أداء التلاميذ، وأن يقفوا على التعثرات والنواقص، وذلك يمكنهم من تعديل المشاكل الدراسية وتقويمها وتصويبها.

الكل بات يشير إلي بالبنان، وهنا أدركت أن الأساتذة لا يكرهون أحدا، وإنما أعمال التلاميذ الصببانية -أحيانا- هي التي تجعلهم يقومون بردة فعل قد لا ترضي التلميذ. رأيت أن الأستاذ مهما كان قاسيا يحب الخير لتلميذه، وأنه إنسان يصيب ويخطئ، ولهذا ينبغي أن يجازى إن أصاب، وينبغي مسامحته إن أخطأ.

وقرت نفسي، فوقرني الجميع، ولم تعد أعي بحاجة إلى أن تقودني إلى الحارس العام للخارجية بسبب غياب كثير، أو بسبب خصام مع أستاذ أو أستاذة أو تلميذ. قربني الأساتذة منهم أكثر، وكانوا يرسلونني من أجل كل حاجة، وأضحيت مضرب المثل.

أنهينا دروس الدورة الأولى، وجاء الامتحان المحلي، وعملت فيه بجد، وكان التحضير الفعال سببا لنتيجة مشرفة جعلت كل من يعرفني يحترمني، وأولهم أسرتي التي فرحت أكبر مما فرحت بنفسي. حصلت على النقطة الأولى في المؤسسة، وهذا جعلني أبحث عن النقطة الأولى على صعيد المديرية.

في الدورة الثانية لم أعد محتاجا لإثبات نفسي، وبدأت أميل ثانية إلى الزاد الثقافي، لأنني كنت أحصل الدرجات العالية بمجهود أقل، وفي كثير من الامتحانات أصبحت لا أحتاج إلى التحضير، أتابع الدرس داخل الفصل مع الأساتذة، وأعمل على تحضير دروسي، وأحرر التمارين، وأبحث في موضوع من المواضيع، وغالب وقتي أتصفح فيه الصحف أو أحضر تمارين رياضية أو مباراة مع فريقتي.

جاءني جنون القراءة، وكنت تراني أمام الكتبي أحرق في الجريدة، أنظر إلى العناوين، وأقرأ إن سنحت الفرصة المواضيع، وكان الكتبيون لا يحبذون هذا مني، وطالما رأي أحدهم ونهرني أمرا إياي بالابتعاد. أما إذا رأيت مكتبة، فذلك هو المتعة الأكيدة، حيث أجول ببصري على أغلفة الكتب، وأتعرف صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجة، وسنن الترمذي، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، والرسالة، والأم، وإحياء علوم الدين، والفقه المبسط في دوء الكتاب والسنة... وأقرأ عنوانا يطرق سمعي، وهو مقدمة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، وأرجو أن أقرأه، لكن كما يقال: "العين بصيرة واليد قصيرة"، وأشتهي ملاقاته ومحاورته مستقبلا. وعلى عتبات المكتبات كنت أرى غلاف كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والأغاني لأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد... ربه، وبهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر

أنهينا الدورة والموسم، ونجحت بتفوق، وكنت أول من حصل على جائزة التفوق في حفل التفوق الذي نظمته ثانوية ابن هشام الإعدادية لفائدة تلاميذها لتشجيعهم على العطاء والعمل، ولا أخفي أنني -وقتها- كنت كالعصفور يشدو فوق دَوْحَة، وإن لم أحصل على الدرجة الأولى على سعيد المديرية فذلك لم يغضبني

في الثانوية التأهيلية ابن الهيثم سوف يبدأ حلمي المستقبلي يكبر، وأزداد مع الأيام يقينا أنني أمضي نحو القمة. لم أحتج إلا بضعة أيام حتى ذاع صيتي بين أسوار الثانوية التأهيلية، وأصبحت محط أنظار الأساتذة والتلاميذ. قضيتُ بها ثلاث سنوات كانت كافية لتأهيلي على أكبر مستوى، وكان لنصائح المؤطرين أكبر الأثر في تكويني، كانوا يعاملونني بلطف، ويقدمون لي النصائح الغالية. ولا أخفي عنكم الأساتذة الذين قرأتُ كتبهم، وانتفعت بما قدموه من أفكار تسقي الحَجْر قبل البَشَر

إذا دخلت الثانوية تجد نفسك أمام ممر طويل، وما إن تلجها تجد الإدارة عن يسارك، وبينما تعبر بضعة أمتار تجد قاعة الأساتذة عن يسارك أيضا. وما إن تبعد عن الباب خمسين مترا تقريبا تجد جناحا يتكون من سفلي وطابقين، ويقابل جناحا آخر يشبهه، وتفرقهما ملاعب للتربية البدنية والرياضة، وكانت تقوم مقام الساحة. وتضم أيضا جناحا لمواد العلوم، ومكتبة كانت خالية من القراء أغلب الوقت، ولا يزيل غربتها إلا قلة من المحظوظين، وجناحا خصص لمادة الاجتماعيات والترجمة، كما تضم فضاء آخر للرياضة

تميز المؤطرون في الثانوية بالصرامة، لا يمكن أن يتسامحوا في غياب، أو شجار، وكان عليهم أن يتحروا أمر قسم أو مجموعة تلاميذ أو تلميذا، مقلدين رجال الشرطة في تحقيقاتهم، لأن التلاميذ نبغوا في التحايل، وطمسوا الحق، وأظهروا الباطل. البعض من التلاميذ كان يصاحب عريف القسم أو عريفته غاية تبرئة النفس من مشكلة غياب، والتي كانت تعود على العريف أو العريفة بالمشاكل، لكن تراه يعيد الكرة تحت ضغط التلاميذ.

كوّنتُ شخصيتي المعرفية -شيئا ما- في مرحلة الثانوية التأهيلية، ولا أنسى تلك الأيام التي نلتُ فيها أكثر من جائزة تشجيع، كان لا يخلو موعد ثقافي دون تنويجي، إذ كان التتويج دائما من نصيبي.

وصلنا إلى السنة الختامية، وهي سنة إسهادية، يتمكن فيها التلاميذ الذين نجحوا من البكالوريا على اختلاف أسلاكهم. وتابعت دراستي الثانوية في شعبة العلوم، واخترت فيها مسلك العلوم الفيزيائية، وبرهنت عن غلو كعبي، وكنت من الأوائل على صعيد مديرية الحي الحسني.

نظمت المديرية الإقليمية حفلا لتحفيز المتميزين، رافقتني إليه أبي، وكان فرحا بي، ورأيت في عينيه ساعتئذ دمعين مكتومين، ولولا تماسكه لانهار باكيا، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ زمن. وكانت الجائزة مجموعة من الكتب، ومنحة رمزية لم أنتبه إليها بقدر ما انتبهت للكتب، لأنها كانت غرامي، وأصابتنني بسهامها كما أصابت عثمان بن بحر.

هكذا حرثُ في أمري وفي زمني، وحصلت على البكالوريا التي طالما انتظرتها، لكن ماذا أختار بعدها؟ كنتُ أسعى لنيل الأوطار، سجلت نفسي في مجموعة من المدارس الجامعية، ومنها المدرسة الوطنية للتجارة والتسيير، وهي من المؤسسات ذات الاستقطاب المحدود. حظيت بفرصة الولوج إلى المركز المتواجد بسطات، ويحظى بسمعة، وسمعت أن التكوين فيه يقود إلى رأس الهرم، وأنه مركز نال احترام من مر منه. كان إلى جانب المدرسة الوطنية للتجارة والتسيير بسطات فروع عمومية أخرى تتواجد بالدار البيضاء، والجديدة، ومراكش، والقنيطرة، وفاس، ومكناس، وبني ملال، وطنجة، ووجدة، وأكادير، والداخلة. سوف أدخل هذه المدرسة، وهي مدرسة من بين اثنتي عشرة تتواجد فوق ثرى وطني. وسوف أقضي خمس سنوات في هذه المدرسة، وهي تجربة أضيفت إلى تجاربي، ازداد إشراقي وازدادت اهتماماتي، وبدأت -هنا- أكون شخصية فذة.

المؤسسة تعتمد ضوابط صارمة لاختيار الطلبة الذين يلتحقون بأقسامها، وتختار من المرشحين وفق نقط سنتي البكالوريا، وباعتماد معاملات لكل مسلك دراسي مدروس في السنة الثانوية الختامية.

كنت أريد المدرسة الوطنية للتجارة والتسيير، وجعلتها فوق الأهداف، وسجلت نفسي في المدارس الأخرى احتياطاً، وإن لم ينجح هذا الاختيار أو ذاك، سوف أدخل كلية العلوم، وأختار قسماً من أقسامها وهي كثيرة، وهذا لا يبرر خاطري، لأن معدلي كان مرتفعاً، وفاق سبع عشرة درجة جعلتني سيد زماني

أسابيع قليلة من الترقب والانتظار وكنت من الناجحين، وكان علي أن أزور المدينة حتى أكمل عملية التسجيل. كانت أول مرة أغادر فيها الدار البيضاء لوحدي إلى عاصمة الشاوية، وكان التسجيل الأولي بالمدرسة قد تم عن طريق الشبكة العنكبوتية

الشبكة العنكبوتية أفادتني، خاصة في موضوع التسجيل للمنحة الجامعية في موقع مُنحتي، والذي سجلت فيه -بسرعة- قرابة منتصف شهر يونيو، أي عند إصدار الوزارة للمذكرة الخاصة بمنحة التعليم العالي، وذلك من أجل أن أتفرغ للمدارس، لأنها كانت تملأ فؤادي

رأيت الفرح على وجهي الأبوين، ورأيتُ الحزن في قلبيهما، فضحتهما الأعين، لأنني سوف أغادر الحي الحسني إلى مدينة أخرى، وهذا أكبر تحد في حياتي، وفي حياة الأبوين، لكن خضتُ بعزم التجربة، لأنني كنت أهوى التحدي، إلى متى سوف أبقى عالة على أب وأم أنا أكبر وأبلغ الشباب وهما يزدادان كهولة؟

حلت ساعة الفراق المؤقت عن الأهل، ورأيت الأب صابراً، لكن أمي لم تقدر على الصبر كعادة كل أم، وبدأت أنهار الفضة تجري من مقلتيها، كأني أغادرها إلى غير رجعة، وما إن أرادت الدموع أن تكشف تأثيري بهذا المشهد القاسي حتى نهزتها بالصعود ثانية. غادرتُ مدينة أعزها، وحبها ملأ القلب هموماً وأحزاناً، وما نسيئها طيلة مدة التكوين، وكنت أردد دائماً: "لك يا أيتها الدار البيضاء في القلوب منازل". كان لزاماً أن أنسى بيئة شغلتي وجداني وجعلتني أنظر من على أكتاف العمالقة

سكنتُ في الداخلية التابعة للمدرسة، وكانت منظمة تنظيمياً، يحكم حارس الداخلية قبضتها، وخدمها كما يخدم رب أسرة ملتزم أبناءه، كان حازماً في مواقف الحزم، وأبا رحيماً في موقف إنساني، لأنه كان مسؤولاً عن ما يجري في الداخلية، وكثيراً ما كان يصلح بين اثنين تشاجرا على شيء حقير، أو كان مضطراً لمغادرة بيته ليلاً لأن أحداً من الطلبة مرض وعليه أن ينقله على وجه السرعة إلى المستشفى الإقليمي

كان هذا الحارس العام أستاذا للغة موليير، وعرفتُ هذا منه مباشرة، لأنه أصبح فيما بعد صديقا لي، واستفدت من تجربته استفادة، كنت من أصفائه المقربين، جعلني -رفقة مجموعة من الطلبة والطالبات- من المسؤولين عن الداخلية وفضاءاتها المتعددة

لا أعلم كيف تبادر إلى ذهني من أول وهلة -قادنا فيها لاختيار غرفتنا- أنه يعشق لغة هيجو، وأنه أحد أساطينها، ليتأكد لي فيما بعد أنه أحد الذين مكثوا في أحضان لغة عرف قدرها شعراء الرومانسية. هو رجل طويل عريض، أقسم اللحم أن يكون من تكوينه، منح وسامة وخفة دم تتبخر إذا ما حل الجد. يرتدي على الدوام بذلة عصرية زادت قسماً وجهه سرا، ووقفته احتراماً. يهوى كرة القدم، صاحبنا في المركز بعدما اخترنا وعرفنا أخلاقنا، وأدرك أننا لن نسبب له المشاكل في مهنته، ولن نطلب منه ما قد يزعجه. يكلمنا ناسياً أشغال الحراسة وأعمالها التي لا تنتهي، عرفناه أبا صادقا قد يمنح من جيبه حتى يدخل على أحدنا المسرة

لا يمكن أن تجده خارج المكتب في أوقات العمل، هو خدوم صاحب مكتبه، واتخذ من الحجرة المخصصة له فضاء لخدمة الطالب وخدمة المدرسة الوطنية للتجارة والتسيير، لأن الإدارة -بحكم تجربته في التسيير التربوي- كانت تحتاجه في بعض أعمالها، ولا سيما إذا كان هناك حفل ثقافي سوف يحضره ضيوف من خارج سطات، ومدير المدرسة يحب أن يلفت انتباه الضيوف، وأن يترك انطبعا لدى الزوار، وكثيرا ما كان يطيعه هذا التمني

بدأت أحس من أول يوم بالغرابة والضياع، لم أطق الابتعاد عن الأهل، وأدركت ما كنت فيه من نعم بين أفراد أسرتي، كنت أخلو إلى نفسي، ولا أنتبه إلا عندما تسقط من عيني دمعان ساختان على الوسادة. في نهاية الأسبوع الثاني كان علي أن أغسل ثيابي لوحدي، أحضرت الملابس التي أردت غسلها وسطلا، ولم أعرف هل أصب الماء أولا أم أضع المسحوق أولا أم أضع الملابس؟ وهنا نسيث الثياب والسطل، اشتقت إلى أمي، ولم أدر حتى تسلفت عبرة مني، ولم أرها إلا تلمع في طريقها حتى امتزجت بالماء الموجود داخل السطل، مسحت ما تبقى من آثارها تحت مقلتي. تذكرت ما أنا فيه، وعدت إلى السطل، فكرت هنيهة وصببت الماء، فرأيت الماء يعلو وتعلو معه الرغوة، ولما زاد مستوى الماء عن النصف أغلقت الصنبور، ووضعنا ثيابي تاركا إياها إلى ما يقارب الساعة، تركتها إلى أن عدت وبدأت أفرك بيدي ثوبا ثوبا، وأعدت الغسل بالماء النظيف. فتشيت في المكان المخصص لنشر الملابس، وجدت حبالا يناديني، نشر الغسيل وتركته إلى أن يجف

تذكرت ما كنت في من النعيم، كان لي أب عطوف رحيم، يخاصمني إذا لم أكن كما يريد، يخرج صباحا متوكلا على الله، ويعود بعد العشاء، ويخرج صباحا متوكلا على الله، ويعود بعد

العشاء، ويخرج صباحا متوكلا على الله، ويعود بعد العشاء، ويعيد العملية ولا يضجر، ولا يتبرم، ولا يستاء، بل يحزن إذا كنا في ضيق مادي. وكانت لي أم تطهو ما لذ وتحضر، ولا تحزن، ولا تعبر عن الألم، ولم أنظر انكسارها إلا عند تلك اللحظة التي أردتُ فيها مغادرة البيت إلى أرض الشاوية، وكم هي اللحظات التي كان يختلط عليها اسمي باسم أخي، وتناديني، ثم تتذكر أنني غادرتُ البيت، وتتوقف لحظات تجوب بحار الذكرى، ولا ينسيها ما هي فيه إلا ياسر أو بثينة، يؤنسَانِها ويخففان من هَوْلِها ورَوْعِها. وكان لي أخوان، وكان لي قمران، كلما ازدادا سينا ازدادا مودة وحباً، ومن غيرهما أعادني إلى طريق الاستقامة؟ ومن غيرهما كان يناقشني في الغرام؟ ومن غيرهما كان يفتح لي أبواب ممالك الفكر؟ أخذتُ من ياسر قوة الإرادة، وعرفتُ منه أنها الجوهرة التي تضيء بنورها الخاص، وأخذتُ من بثينة الهدوء، وعرفتُ منها أن الهدوء يكسر المشاكل ويفصم شوكتها

فترة الثانوية التأهيلية جادت علي بصديقين ووجهين صُبوحين، جادت علي بياسر وبثينة، كانا صديقين، وأصبحتُ لي دررا غالية، وسكنا في الفؤاد. افتقدتُهما في الأسر، وفي سطات، والتي لم أعتد بيئتها إلا بعد مرور شهرين. وذات صباح، وبينما أنا أتذكر الأمس الجميل، إذا بي أقف حازماً أمري، ومُعلننا انقلابي على جيش الأسي، وجنوده القاتلين للعزة. نفضتُ عني غبار الأحزان، وعزمتُ أن أمضي إلى الدار البيضاء حاملاً لأبوي وأخوي ومعارفي تلك الشهادة التي جئتُ من أجلها، والتي تكلفني خمس سنوات، وهل أحقق هذا بالوقوف أمام باب الذكريات وإنزال العبرات؟ أنا لم أستقل الحافلة وأترك الأقربين حتى تعكر حالي الذكريات، علي إعادة ترتيب أهدافي، فهي التي تزرع بذور الأمل

طويثُ صفحة الأحزان، ورميْتُ عني ما يعكر مياه مشاعري، وعزمتُ أن أمشي نحو غايتي، وأن أعيد مجد الثانوية التأهيلية حتى في هذه المدرسة، وذلك ما بان بعد أيام، بدأ الأساتذة الأفاضل يمدحونني بأبيات الشعر وبالقول المشجع، وأكثرُوا في ذلك. كنتُ إمبراطور دهرى، ومنذ الثانوية وأنا أسعى نحو كل غاية، وأخاطب صَهوات المجد

من أجل أن أستمر في عملي وألا أفكر في أمور تنسيني الغاية الفضلى كنتُ كلما طرق ذهني الهمُّ أتجه صوب الدار البيضاء لزيارة الأهل، ولا أخفيكم سرا أنني بدأت أتأمل وجه أبوي، فأرى أُمي الشابة بدأت تكتسب سحنة الأمهات اللاتي غير الزمان شبابهن، وأرى أبي بدأ يكسو البياض مفرق شعره، هل بدأ يكبران أم أناي تأخر في التأمل؟

أول زيارة لي للدار البيضاء لم أخبر أحداً، هيأتُ لها من وسط الأسبوع. استقلتُ حافلة، وبعد سُويعات طرقت الباب الذي ما تأخر في الفتح، إنها المراهقة بثينة يحرق من خلفها ياسر،

صافحتها وما كان من صوتي إلى أن دخل المطبخ، أقبلت الأم، بدأت تصافحني وتبكي، وكان أبي في العمل خارج الشقة.

انخرطت في العمل، وصار يقصدني الطلبة يستفسرون عن درس أو إشكال، وأكثرهم كان يظن أنني ابن بخيل، لكن لم أكن أبخل على أحد عاملا بالحديث: "مَنْ سُئِلَ عن علم فكتمه أجمه الله بلجام من نار". التجربة في الشرح كانت تجعلني أحس أنني أستاذ بين أقراني، وفوق هذا لما كنتُ أشرح يزداد الدرس اتضاحا كأنني أنحت قشرة المخ، ولا ينسى الدرس بعد ذلك أبدا. أيقنتُ أن أدفع البلاء بكثرة الخير، وما دام يحبني الأساتذة، فليشرب القوالون ماء البحار، وليتدحرج الغيورون أسفل الأنهار، أنا قد جئتُ لأحقق أحلامي، ولا بد من ذلك.

في هذه المدرسة لم أنس كرة القدم، وكنتُ أنظم بطولة في الموسم التكويني، ويساعدني في هذه العملية الأصدقاء المخلصون. كنا نسهر لأجل برنامج البطولة، والتي نأخذ إذننا من إدارة المدرسة التي راسلناها في الموضوع مباشرة، والتي بدورها كانت تيسر علينا المهمة، وتقدم لنا بوساطة من أستاذ التربية البدنية والرياضة- ما نحتاجه لإنجاح البطولة. والأستاذ كأنه طالب - بيننا، كان مقاربا لنا في السن، ويخيل للرأي الذي لا يتابع دراسته بالمدرسة أنه قصد المدرسة للتكوين، والعكس هو الصائب، فقد قصد الشاب المدرسة للوظيفة. كان لطيفا لا يلقي مع طلابه أدنى مشكل، وهل يلقي المشاكل مع هؤلاء الطلبة الذين احترموا أساتذتهم؟ وهل يجد المصاعب مع أناس تركوا ديارهم من أجل شهادة حرمتهم من النوم؟

الأستاذ يفتح القاعة المخصصة له، ويفتح مستودع الملابس، والذي لم نكن نحتاجه، إذ كنا ننزل -الملعب من الداخلية القريبة- بلباسنا الرياضي، ونحن على استعداد لخوض مباراة. نلتقط الكرة وشبكتي المرمى والقمصان والصفارة التي سيأخذها حكم هاو، وهذا بعدما أشار لنا بهذا الأستاذ، وكان هو الآخر لاعبا بيننا يلتزم الجياد في البطولات المدرسية، ولا ينتمي لأي فريق، ينتمي لفريق البطاقات الصفراء والحمراء.

لم أكن أعلم أنني سأجد في المدرسة مهرة كرة القدم، كنت أظن أن كرة القدم ولتُ ظهرها عن الطلبة، لكن الأيام الأولى داخل المدرسة أوقفنتي مبهورا، وأنا أشاهد مباراة بين فريقين. وما هي إلا أشهر حتى برز المدافعون الإيطاليون، ولاعبو الوسط الإسبانيون، والمهاجمون البرازيليون والأرجنتينيون.

قضينا ثلاثة مواسم تكوينية أو ستة فصول أولى ضرورية لكل طلبة المدرسة. كل سنة تكوينية كانت الهوة تضيق بيننا، أصبحنا كالأخوة يجمعنا دم الانتساب إلى علم العجم، ويفرقنا دم النسب. في بداية الموسم الرابع كان على كل منا أن يختار التخصص الذي يريد أن يتم فيه



دراسته، مثل التجارة الدولية، أو التسويق أو العمل التجاري، أو الإعلان التجاري والتواصل، أو تدبير العلاقات مع الزبناء، أو التدقيق ومراقبة التسيير، أو التدبير المالي والمحاسباتي، أو تدبير الموارد البشرية، أو التدبير اللوجستيكي. ويستأنس الطلبة بالتدريب في الفصل السادس، ويتعمقون فيه في الفصل الثامن، أما في الفصل العاشر والختامي فهم ملزّمون بالتدريب المهني على مدار فصل كامل وإنجاز مشروع نهاية الدراسة.

التحق بنا بعض الطلبة في السنة الثالثة والسنة الرابعة قادمين من مؤسسات أخرى لها امتداد مع مدرسة التجارة والتسيير، أكملوا معنا ما تبقى من فصول، قد اندمجوا بمساعدة من سبقهم إلى المدرسة. وصراحة كان الطلبة القدامى أكرم مع الجدد، يسروا عليهم الأمور، فهانت العقبات، ولانت الملمات، وكثيرا ما شكرَ الجُدد هذه المساعدة، والتي كان ينخرط فيها حتى الأساتذة الأفاضل، كانوا مضطرين إلى التذكير بمعلومة أو فكرة أو فقرة درس رأيناه في السنة الأولى أو الثانية، ويفعل الأساتذة والأستاذات هذا بوجه طليق وفم باسم، وذاك بعيدا عن التأفف أو التذمر.

كان بعض الأساتذة تجاوز مادته وأحاط بعلوم أخرى جعلت الدراسة على أيديهم كنزا ثميناً، فكم من أستاذ علمنا أنه موسوعة، وازدادت ثقنتنا في درسه، وارتحنا بين يديه. وأكثر من هذا أن بعض الأساتذة كان يكرمنا بجلسة معه في المقهى لما تسنح الفرصة، وهناك نأخذ عنه أكثر، ولا نروم كسب نقط إضافية، فقد كبر الطلبة عن هذا العُضال، وكلهم من الذين يفضلون التكوين أولاً والنقط ثانياً، ويفضلون أن يقتنصوا من الفرصة الأخذ عن تجربة قلّما يسنح بها الزمان خاصة أن هؤلاء المكونين ممن لا يجدون متسعاً زمنياً، لذا وجب الفوز بكل لحظة وجودون بها.

المثير هو أن الأساتذة كانوا متمكنين من اللغة الفرنسية، وكان على الطلبة أن يكونوا كذلك أو على الأقل يفهمون الدرس الذي تم وصفه بالفرنسية، ومن أوتي الإنجليزية -منهم- إلى جانب الفرنسية فقد أوتي خيراً كثيراً. والدرس يكون إما في العربية أو الإنجليزية أو المحاسبة أو الإعلاميات أو التسويق أو القانون أو المنهجية والتواصل أو تحصيل الضرائب أو الاقتصاد أو إدارة المشاريع... هذه هي لغة الأساتذة أثناء المحاضرة، وهذه هي المواد المُدرسة، وهي مواد لها علاقة بالتجارة والتسيير.

وكانت الأنشطة التي تنظم بالمدرسة تمنحنا تكويناً آخر، حيث نستفيد من أساتذة آخرين قادمين من أحد ربوع المملكة أو أحد الدول الشقيقة أو الغربية، يتقاسمون مع الأساتذة ومع الطلبة تجربة جديدة أو قديمة يسعون إلى إضفاء الجديد عليها حتى نكون في المستوى نفسه مع البلدان التي تسبقنا في هذا المجال، ويعد التكوين المستمر أحد المرتكزات التي تبقىها في

الصدارة. كنت أول من يبادر إلى المشاركة في هذه الأنشطة، وأكسبتي كفاءات تنظيم اللقاءات الوطنية أو الدولية، وطالما شاركتُ بورقة في أحد الأنشطة. وربما يحضر فريق إعلامي أو أكثر ينشر مواد الملتقى أو الندوة، مما يزيد النشاط المدرسي قيمة.

في الفصل العاشر اخترت أن يكون تدريبي في شركة تهتم بالتجارة الدولية التي تخصصت فيها، وفي الدار البيضاء حتى أكون قريباً من الأسرة من جهة، وحتى أكون وسط زحمة من الخيارات، لأن الدار البيضاء مركز الشركات والمؤسسات الدولية. وكان مشروع بحثي في موضوع التسويق الدولي، لم أترك فيه شاردة ولا واردة، وأتيت فيه بالعجب كما أكد المناقشون. يوم ناقشتُ بحث التخرج.

التدريب في الشركة جعلني أفتح على التطبيق بعدما تفوقت في ما هو نظري داخل المدرسة، وأعترف أن أشهر التدريب في الفصل العاشر أو قبله كانت مخالفة بعض الشيء لما هو نظري، لكن بقليل من الاجتهاد وفقتُ. العمل الجاد أثمر، إذ نلت ثقة المدير العام والإدارة، وأبدوا رغبة في أن أكون من زمرة فريقهم بعد التخرج.

انتهت الأحداث بحمد الله وبتوفيق منه.



